جامعة الأزهر
حولية كلية اللغة العربية
بنين بجرجا

بلاغة الخطاب النبوي
ودورها في إقرار السلم المدني

الدكتورة
نهلة صبري الصعيدي
أستاذ البلاغة والنقد المساعد
في كلية الدراسات الإسلامية والعربية بنات القاهرة

العدد الثامن عشر
للعام ١٤٣٥هـ / ٢٠١٤م
الجزء الخامس
رقم الإيداع بدار الكتب المصرية ٦٩٤٠/ ٢٠١٤م
الترقيم الدولى ISSN 2356-9050

ملخص البحث

هدف هذا البحث إلى الكشف عن دور بلاغة الخطاب النبوي في إقرار السلم المدني ، والإفادة من بلاغة هذا الخطاب في إقرار السلم في المجتمع باعتبار أنه خطاب عالمي ونموذج حضاري فيه مقومات كفيلة بإشاعة روح المحبة و الود و نشر الرحمة و السلام بما يحمله من معان إنسانية عظيمة في نسق أدائي يستولي على الحس و يدخل القلب بلا استئذان .

كما يهدف هذا البحث إلى تقديم نموذج للخطاب الحضاري الرائع الذي استطاع به رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يحفظ على البلاد والعباد سلمهم وأمنهم واستقرارهم ، وأن يشكل مجتمعاً راقياً قادراً على الحب والعطاء والتعاون وأن ينزع من قلوبهم الحقد والبغضاء ، ومن عقولهم الصدام والصراع.

إن هدف هذا البحث التأكيد على ضرورة ولادة خطاب عربي فكري معاصر قادر على السيطرة على كل فكر معتل وكل عقل مختل ،خطاب يستوعب حقائق العصر ،ويدرك مستوى الفكر ،ويستشعر نفوس البشر، ويفهم نفسياتهم ، ويدرك عقولهم ،ويصل لقلوبهم ، ويلم شتاتهم، ويجمع كلمتهم ،ويوحد صفوفهم .

* * * * * *

مقدمة

الحمد لله الذي خلق الإنسان وعلمه الحكمة والبيان و"بعث في الأميين رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين ".(١)

والصلاة والسلام على صاحب الحوض المورود واللواء المعقود، من أدبه ربه فأحسن تأديبه، فكان على خلق عظيم وكان خلقه القرآن، من أوتي جوامع الكلم وروائع الحكم ،محمد بن عبدالله ورسوله وصفيه من خلقه وخليله إمام البلغاء وسيد الفصحاء القائل" الكلمة الطيبة صدقة". (٢)

وبعد ،

فالسنة النبوية هي المصدر الثاني للتشريع فهي مبينة له ، مفصلة لأحكامه ، مفرعة على أصوله ، وهي التطبيق العملي للإسلام على يد رسول الإنسانية محمد صلى الله عليه وسلم دان المسلمون لأحكامها من لدن الرسول الكريم إلى يومنا هذا، وستبقى إلى جانب القرآن مصدر الأحكام ومعين الآداب والأخلاق حتى يرث الله الأرض ومن عليها.

والخطاب النبوي هو أفضل الخطابات وأسماها بعد خطاب الله عز وجل ؛ لأنه رباني المصدر إلهي المبدأ مستمد من كتاب الله تعالى ليكون منهجاً في العقيدة والعبادة والأخلاق والمعاملات بما يصلح حال المجتمع ، ويقر فيه الأمن

---

(١) الجمعة آية ٢

(٢) صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب طيب الكلام .

والسلام بما يحمله من قيم أصيلة ومعان سامية وتوجيهات ربانية تستهدف الإنسان الذي هو محور عملية الأمن والسلام.

إن لفظ الإسلام- الذي هو عنوان هذا الدين- مأخوذ من مادة السلام، فالسلام والإسلام يلتقيان في توفير الطمأنينة والأمن والسكينة ،وحامل هذه الرسالة هو حامل راية السلام (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين).[١]

فالخطاب النبوي خطاب يستوعب الزمن كلَّه والحياة كلَّها ،والإنسانَ كلَّ الإنسان بكل كيانه ومراحله وصفاته وأخلاقه ،بما يحقق للفرد والمجتمع عوامل الحماية والأمان والسلام والاستقرار بتثبيت الأمن ونشره في المجتمع والحفاظ على السلم بين أفراده ؛ وذلك ببناء الإنسان عقيدة وأخلاقاً وسلوكاً ؛لأن السلم إنما يتوفر بتهذيب النفوس وتنقية القلوب وتطهير الأخلاق التي تمنع التعدي على الناس في أعراضهم وأموالهم وأبدانهم، فمن دخل في الإسلام قبولاً أو ذمة أو صلحاً أو سلماً دخل في نطاق السلم والأمن.

وقد بين الرسول صلى الله عليه وسلم في كتابه إلى هرقل ملك الروم أن ثمرة الدخول فى الإسلام السلام (فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم، وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين).

ونحن اليوم في حاجة ملحة إلى هذا الخطاب النبوي لما له من أهمية بالغة في تعزيز السلم ونشره في المجتمع بما يحمله من قيم أصيلة، ومعان سامية، وتوجيهات ربانية ،فهو قوة نستطيع أن نواجه بها صراعاً ضخماً من حولنا يهدد أمننا وسلمنا، ويقدم حلولاً عملية محددة ليست وقتية وإنما أبدية ؛ لأنه خطاب نابع من عقيدة دينية قوية عميقة في النفس تحقق أهداف الإسلام العظيمة.

---

(١) الأنبياء آية رقم ١٠

فهو خطاب يجمع القُوَى، ويوحد الصفوف ،ويدفع الطاقات ويصونها عن التمزق والتشتت ، ونواجه به مشكلات الحياة وقوى الأعداء في الداخل والخارج.

والمتتبع أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم يجده قد عمق مبدأ السلم في نفوس المسلمين، فأصبح جزءاً من كيانهم وعقيدة من عقائدهم ، فنصائحه النبوية وتوجيهاته الأخلاقية، ومواقفه الإنسانية ، وضعت خطة رشيدة تبلغ بالإنسانية كلها مبلغ الأمن والاستقرار والسلام والطمأنينة ، وخطابه النبوي الشريف قد رسم الطريق الأمثل لتعيش الإنسانية في قمة رقيها وتقدمها وحضارتها، وهي منعمة بظلال الأمن والسلم.

لقد سما الخطاب النبوي في كل حالاته ،وتميَّز في كل جوانبه وفي طرقه وأساليبه، فحوى صنوف البلاغة، وألوان الفصاحة، وعبر أدق تعبير عن سمو النفس التي خرج منها، "فلم ينطق إلا عن ميراث حكمة، ولم يتكلم إلا بكلام قد حف بالعصمة، وشيد بالتأييد، ويسر بالتوفيق ، وهو الكلام الذى ألقى الله عليه المحبة، وغشاه بالقبول، وجمع له بين المهابة والحلاوة، وبين حسن الإفهام ،وقلة عدد الكلام...، ثم لم يسمع الناس بكلام قط أعم نفعاً، ولا أقصد لفظاً، ولا أعدل وزناً، ولا أجمل مذهباً، ولا أكرم مطلباً، ولا أحسن موقعاً، ولا أسهل مخرجاً، ولا أفصح معنى، ولا أبين فحوى من كلامه "[1].

وكما يقول الرافعى: " إن ذلك الجمال الفنى فى بلاغته إنما هو أثر على الكلام من روحه النبوية الجديدة على الدنيا وتاريخها... فهو كلام كلما زدته فكراً زادك معنى، وتفسيره قريب كالروح فى جسمها البشرى، ولكنه بعيد كالروح فى سرها الإلهي...، فهو لسان وراءه قلب وراءه نور وراءه الله جل جلاله...،

(١) ينظر البيان والتبيين ١٧،١٨/٢ ط دار الجيل –١٤١٠ هـ ١٩٩٠ م

فكلامه يجرى مجرى علمه ، كله ديــن وتقوى وتعليم ، وكله روحانيــة وقــوة وحياة...[٢].

وقد هدف هذا البحث إلى بيان الدور المهم الذي قامت به بلاغة الخطــاب النبوي في تعزيز السلم وإقراره في المجتمع، فقــد كــان لنصــائحه النبويــة ، وتوجيهاته الأخلاقية ، ومواقفه الإنسانية أكبر الأثــر فــي دعــم روح الســلام والمحبة والتعاون ، وكم من أقوال له أخمدت فتنا وأشاعت سلماً .

كما هدف البحث إلى التعرف على الأساليب البلاغيــة التــي اســتخدمها الرسول صلى الله عليه وسلم للاستفادة منها في تعلم كيفية صياغة خطاب يتضمن فكرة ناجحة ، ووصية ناجعة ،وتمرير فكر راق ،وعــرض رأي صــائب يمتــاز بالإقناع والتأثير، لأننا إذا أتقنا ذلك استطعنا أن ندير حــواراً فعــالاً مــع الآخــر ،وأصبحنا قادرين على إخماد الفتن ،و تجنب الخلافات غير الضرورية، وتصحيح سوء الفهم ، والتفاوض بشكل فعال ،كل هذا يتحقق إذا تعلمنا صناعة الخطاب.

وقد جعلت هذه الدراسة في مقدمة ، وتمهيد ، ومبحثين ، وخاتمة .

أما عن الدراسات السابقة فلم أجد دراسة تتحدث عــن بلاغــة الخطــاب النبوي ودورها في إقرار السلم المدني ، لكن هناك دراسات أخــرى فــي الســنة النبوية منها: التصوير الفني في الحديث النبوي للدكتور لطفي الصباغ، والقصص في الحديث النبوي دراسة فنية موضوعية للدكتور محمد حسن الزير، والخطــاب التوجيهي في الحديث النبوي للأستاذ ــ حسين علي حســين حســن ، وملامــح الخطاب التربوي من خلال الأحاديث النبوية الموجهة للشباب للطالب محمد كامــل حسن الجمل.

---

(٢) " إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ص ٢٨٢ ط مكتبة الإيمان – ط أولى – (١٤١٧) هـ

المقدمة : عرضت فيها لأهمية الموضوع، وأهدافه ، وخطته .

التمهيد تضمن :

١- تعريف الخطاب في اللغة والاصطلاح.

٢- أهمية الخطاب النبوي ودوره في حياة الفرد والمجتمع

٣- سمات الخطاب النبوي.

٤- مفهوم السلم.

٥- استثمار بلاغة الخطاب في إقرار السلم المدني .

المبحث الأول: البلاغة في ضوء النصائح النبوية والتوجيهات الأخلاقية خطوة في دعم السلم

والمبحث الثاني: بلاغة الرد فى خطابات الرسول صلى الله عليه وسلم ودورها فى إقرار السلم المدني.

وأما **الخاتمة** فتضمنت: نتائج الدراسة والتوصيات.

****

تمهيـــد

أولاً : تعريف الخطاب في اللغة والاصطلاح :

تعريف الخطاب في اللغة :

والخطاب لغة: مادة لغوية من خطب، على وزن فِعَال مشتقة بالتحويل عن الفعل الثلاثي (خطب)

قال ابن فارس :"الخاء والطاء والباء أصلان :أحدهما الكلام بين اثنين ، يقال خاطبه يخاطبه خطاباً، والخطبة من ذلك ، وفي النكاح الطلب أن يزوج ، قال تعالى:" وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ" والخِطْبَةُ الكلام المخطوب به ، يقال اختطب القوم فلاناً إذا دعوه إلى تزويج صاحبتهم، والخطب الأمر يقع وإنما سمي بذلك لما يقع فيه من التخاطب والمراجعة .

أما الأصل الآخر: فاختلاف لونين ،قال الفراء: الأتان التي لها خط أسود على متنها"[١]

وفي لسان العرب: الخطاب والمخاطبة : مراجعة الكلام، وقد خاطبه بالكلام مخاطبة وخطاباً، وهما يتخاطبان والمخاطبة صيغة مبالغة تفيد الاشتراك والمشاركة في فعل ذي شأن ، قال الليث : إن الخطبة مصدر الخطيب ، لا يجوز إلا على وجه واحد ، هو أن الخطبة اسم الكلام الذي يتكلم به الخطيب فيوضع موضع المصدر"[٢]

---

(١) معجم مقاييس اللغة، ابن فارس ١٣٩٩هـ تحقيق وضبط عبد السلام محمد هارون ، دار الفكر للطباعة والنشر ج٢ ص١٩٨-١٩٩

(٢) لسان العرب ،لابن منظور ، دار صادر، بيروت ، ط١ ١٩٥٥م مادة خطب

وقال الرازي : "خاطبه بالكلام مخاطبة وخطابا ، وخطب على المنبر خُطبة بضم الخاء وخطابة"[١]

وقال الزمخشري :" خاطبه أحسن الخطاب ، وهو المواجهة بالكلام "[٢]

وقال الجوهري:" وخاطبه بالكلام مخاطبة وخطاباً"[٣]

والخطاب : الكلام وفي التنزيل العزيز " فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ " [٤]: و فصل الخطاب ما ينفصل به الأمر من الخطاب و في التنزيل العزيز" وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ "[٥] و فصل الخطاب أيضاً : الحكم بالبينة ، أو اليمين ، أو الفقه في القضاء، أو النطق بأمَّا بعد، أو أن يفصل بين الحق و الباطل، أو هو خطاب لا يكون فيه اختصار مخل و لا إسهاب ممل[٦].

أما الخطاب اصطلاحاً :

فيستعمل بمعانٍ شتى ، تختلف تبعاً لطبيعة موضوع الخطاب، وتبعاً للأغراض التي يتوخى تحقيقها منه ، وهو بحسب ما يضاف إليه :فهناك الخطاب الثقافي، والخطاب السياسي ، والخطاب الاجتماعي، والخطاب التاريخي .

---

(١) التفسير الكبير فخر الدين الرازي ،(ب ت)، ص ١٠٨

(٢) أساس البلاغة للزمخشري ، تحقيق عبد الرحيم محمود، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت لبنان ص١١٤

(٣) تاج اللغة وصحاح العربية إسماعيل بن حماد الجوهري ، ١٩٩٠ ، ط٤، دار العلم للملايين ، بيروت، لبنان،ج١، ص١٢١.

(٤) سورة ص آية٢٣

(٥) سورة ص آية٢٠

(٦) المعجم الوسيط مصطفى وآخرون، مجمع اللغة العربية، دار الدعوة ب.ت،ج١، ص٢٤٣

ففي التشريع والقضاء تعني بلاغة الخطاب أن :"يؤسس على البرهان الاستدلالي، على النحو الذي يحدده المنطق ،وفلسفة التشريع والأيدلوجية المتبناة في صياغة التشريعات، وفي أحكام القضاء، ومعنى هذا أن الخطاب يتجاوز الشكلية اللغوية ،ويمتد إلى وسائل الإقناع ،ونوعية البرهان، وأدوات الأسلوب البياني" (١).

والخطاب التوجيهي هو: اللغة المعبرة عن جملة التصورات والمفهومات والاقتراحات حول الواقع، وصفاً وتحليلاً ونقداً واستشراقاً لمستقبله ، أو حول علاقة الوجود بين المسلمين ومجتمعهم، وهو بذلك تعبير عن أيديولوجية منتج الخطاب في لحظة معينة(٢).

وخطاب الرسول صلى الله عليه وسلم هو : الرسالة التي نزلت من فوق سبع سماوات لتنظيم علاقات البشر مع خالقهم وأنفسهم وغيرهم، وهذا الخطاب هو الذي يحدد المصلحة من المفسدة، والصالح من الطالح، والمستقيم من المعوج والمؤمن من الكافر والصواب من الخطأ ويقرر السلم من الحرب، وهو الميزان الذي يفصل في ميزان الخلق إلى الجنة أو النار(٣).

---

(١) التربية الإسلامية بين الأصالة والمعاصرة، سعيد إسماعيل القاضي، صـ ٨ عالم الكتب، بيروت ٢٠٠٤م

(٢) استراتيجيات الخطاب مقاربة لغوية تداولية د. عبد الهادي بن ظافر الشهري صـ٦٦دار الكتب الجديد المتحدة ط١،٢٠٠٤م

(٣) مجلة الآداب العدد صـ١٤٧ ١١٠ ١٤٣٦هـ - ٢٠١٤م

ثانياً: أهمية الخطاب النبوي ودوره في حياة الفرد والمجتمع :

إن الخطاب النبوي وثيقة سلام إلى البشرية جمعاء على اختلاف أجناسها وأعرافها ولغاتها وألوانها ، وعلى تباين مللها ونحلها ، وأطيافها وأهوائها؛ لأنه خطاب يدعو إلى الصفح عن المساءة وضبط النفس عند الغضب" لا تغضب"

خطاب يدعو إلى السماحة في المعاملة بيعاً وشراء واقتضاءاً " رَحِمَ اللَّهُ عَبْدًا سَمْحًا إِذَا بَاعَ سَمْحًا إِذَا اشْتَرَى سَمْحًا إِذَا اقْتَضَى"(١)

خطاب قادر على الربط بين أفراد المجتمع برباط المصلحة المشتركة التي لا ينهض بها فرد بمفرده " كُلُّكُمْ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، فَالْإِمَامُ رَاعٍ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالرَّجُلُ فِي أَهْلِهِ رَاعٍ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالْمَرْأَةُ فِي بَيْتِ زَوْجِهَا رَاعِيَةٌ وَهِيَ مَسْئُولَةٌ عَنْ رَعِيَّتِهَا ،وَالْخَادِمُ فِي مَالِ سَيِّدِهِ رَاعٍ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ"(٢)

خطاب يدعو للحب والمودة والتعاون "مَنْ كَانَ عِنْدَهُ طَعَامُ اثْنَيْنِ فَلْيَذْهَبْ بِثَالِثٍ وَمَنْ كَانَ عِنْدَهُ طَعَامُ أَرْبَعَةٍ فَلْيَذْهَبْ بِخَامِسٍ أَوْ سَادِسٍ "(٣)

"مَنْ كَانَ عِنْدَهُ فَضْلُ ظَهْرٍ فَلْيَعُدْ بِهِ عَلَى مَنْ لَا...ظَهْرَ لَهُ وَمَنْ كَانَ عِنْدَهُ فَضْلُ زَادٍ فَلْيَعُدْ بِهِ عَلَى مَنْ لَا ..... زَادَ لَهُ حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ لَا حَقَّ لِأَحَدٍ مِنَّا فِي الْفَضْلِ " (٤).

---

(١) صحيح البخاري كتاب البيوع ، باب السهولة والسماحة في الشراء والبيع ومن طلب حقاً فليطلبه في عفاف.

(٢) صحيح البخاري كتاب العتق، باب العبد راع في مال سيده.

(٣) صحيح البخاري ،كتاب الأطعمة، باب طعام الواحد يكفي الاثنين.

(٤) صحيح مسلم بشرح النووي كتاب اللقطة ، باب استحباب المؤاساة بفضول المال.

خطاب يحقق للفرد غاياته وآماله وطموحه دون شحناء أو بغضاء أو نزاع مع أحد ففي الساحة متسع وفي الأرض مجال رحب للانطلاق والتقدم دون عراك أو ضغينة.

"لا تَحَاسَدُوا، وَلا تَنَاجَشُوا، وَلا تَبَاغَضُوا، وَلا تَدَابَرُوا، وَلا يَبِعْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَيْعِ بَعْضٍ، وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَاناً. الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ، لا يَظْلِمُهُ، وَلا يَخْذُلُهُ، وَلا يَكْذِبُهُ، وَلا يَحْقِرُهُ. التَّقْوَى هَا هُنَا -وَيُشِيرُ إِلى صَدْرِهِ ثَلاثَ مَرَّاتٍ- بِحَسْبِ امْرِئٍ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ. كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ: دَمُهُ، وَمَالُهُ، وَعِرْضُهُ". رَوَاهُ مُسْلِمٌ.(١)

خطاب يؤسس لنظام عادل لا ظلم فيه ولا طغيان ،ولا مجال فيه إلا للعدل والمساواة " إِنَّ أَحَبَّ النَّاسِ إِلَى اللَّهِ وَأَقْرَبَهُمْ مِنْهُ مَجْلِسًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِمَامٌ عَادِلٌ ، وَأَبْغَضَ النَّاسِ إِلَى اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَأَشَدَّهُمْ عَذَابًا إِمَامٌ جَائِرٌ "

خطاب يصون المال والعرض ويؤمنه :" كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ دَمُهُ وَعِرْضُهُ وَمَالُهُ "

إنه الخطاب الذي يحقق سلام الضمير ،وسلام الأسرة ،وسلام المجتمع ،وسلام العالم أجمع ؛لأنه يعد الإنسانية كلها إنسانية واحدة ؛ حيث أعلن رسول الإنسانية أول ميثاق متكامل لأمن البشرية في حجة الوداع

"أيها الناس إن دماءكم وأموالكم، وأعراضكم عليكم حرام إلى أن تلقوا ربكم إنما المؤمنون إخوة، لا يحل لامرئ مالُ أخيه إلا عن طيب نفس منه، وإنكم ستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم، ألا هل بلغت ؟ اللهم فاشهد "

---

(١) صحيح مسلم ، كتاب البر والصلة والآداب ، باب تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره ودمه وعرضه وماله.

إنه خطاب قادر على إقامة سلام شامل ، سلام قائم على الحب والرحمة، الرحمة الإنسانية الخالصة ؛ لأنه خطاب يذكر بوشائج القربى ، وصلات الأخوة ، خطاب يوقظ الضمائر ، ويحرك الهمم، ويقوي الصلات، ويوطد العلاقات، وينظم المعاملات ، ويحرم الخصومات، ويعزز الإيجابيات ، ويمحو السلبيات ، ويخفي الصراعات، ويحفظ الكرامات ، فتنشأ السماحة وينتشر السلم ، ويعم الأمن ، ويسود الاستقرار.

إنه باختصار شديد : خطاب يربي الوجدان والمشاعر التي يقيم عليها الإسلام أسس السلام .

ثالثاً : سمات الخطاب النبوي الشريف

لخص الرافعي خصائص البيان النبوي بقوله :

"البيان النبوي انفرد عن غيره بأسباب طبيعية فيه، فهو من جهة اللغة مسدد اللفظ ، محكم الوضع جزل التركيب ، متناسب الأجزاء في تأليف الكلمات ، فخم الجملة ، واضح الصلة بين اللفظ ومعناه ...ثم لا ترى فيه حرفًا مضطربًا ، ولا لفظة مستدعاة لمعناها ومستكرهة عليه ، ولا كلمة غيرها أتم منها . وهو من جهة البيان تراه حسن المغزى بين الجملة ، واضح التفصيل ، ظاهر الحدود ، جيد الوصف ، متمكن المعنى ، واسع الحيلة في تصريفه ، بديع الإشارة ، غريب اللمحة ، ناصع البيان ثم لا ترى فيه إحالة ولا استكراهًا ، ولا ترى اضطراباً ولا خطلاً ولا استعانة من عجز ولا توسعًا من ضيق ولا ضعفاً في وجه من الوجوه . أضف إلى هذا سمو المعنى وفصل الخطاب والتصرف في كل طبقات الكلام ، ليجتمع من هذا وما إليه نسق في البلاغة يجمع الخالص من سر اللغة ومن البيان ومن الحكمة" .[١]

---

(١) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية للأستاذ / مصطفى صادق الرافعى – ط مكتبة الإيمان – ط أولى – (١٤١٧) هـ (١٩٩٧) م.

التنوع والشمول:

لقد جاءت أساليبه البلاغية – صلى الله عليه وسلم – متنوعة تبعاً لطبيعة الموقف والمخاطب ،فتارة يستخدم صلوات ربي وسلامه عليه الخطاب الصريح المباشر، وتارة يستخدم أسلوب التعريض ، وأحياناً الأسلوب الحقيقي وأحياناً أخرى المجازي وتارة الخبر وتارة الإنشاء.

كما نجد معانى الحديث النبوي تتناول شئون الدين والدنيا، فلا تقتصر معانيه على ما يتصل بالدين وحده أو بالدنيا وحدها، بل تتنوع فيه المعانى وتختلف ، فنجد من الحديث ما يتحدث عن الصلاة، أو الزكاة، أو الحج ، أو غير ذلك من العبادات. ونجد من الأحاديث الأخرى ما يتحدث عن الأخلاق، كالحياء ، والصدق، والصبر، والحلم، وغير ذلك. ومن الأحاديث الأخرى ما يتحدث عن المعاملات ، كالبيع، والسلم، والضمان، وغير ذلك. ومن الأحاديث ما يتصل بالآخرة ، كالجنة والنار، وهكذا.

وكان خطابه صالحاً لكافة شرائح المجتمع الإسلامي فخاطب الصغير والكبير، المرأة والرجل ،الشاب والشيخ ،تكلم مع الكافر والمسلم ، فقد كان ذا خطاب راقيا يراعي حاجات الفرد المتعلم وطبيعته ويأمر بمخاطبة الناس على قدر عقولهم ، أي يراعي الفروق الفردية بينهم كما يراعي مواهبهم واستعداداتهم وطبائعهم يراعي في المرأة أنوثتها ، وفي الرجل رجولته ، وفي الكهل كهولته ، وفي الطفل طفولته"[(١)]

(١) أصول التربية الإسلامية وأساليبها في البيت والأسرة والمجتمع النحلاوي عبد الرحمن ١٤٢٦هـ، دار الفكر ، دمشق،سوريا صـ٢٦

البعد عن التكلف:

سلم الخطاب النبوي من التكلف، فجاءت فصاحته فطرية طبيعية ، وجاءت الألوان البلاغية عفو الخاطر يتطلبها المقام ويستدعيها.

الأصالة:

أما عن الأصالة فى البيان النبوي فما أروعها وأبدعها ، فلقد ابتكر النبى ﷺ كثيراً من الأساليب التي لم يسبق إليها، ولم تسمع من عربى قبله.

الإيجاز وجوامع الكلم:

هذه الخاصية من أبرز خصائص البيان النبوي، وقد أشار إليها الرسول – صلى الله عليه وسلم بقوله: " أوتيت جوامع الكلم " [١]. فكلامه عليه الصلاة والسلام كان بالجوامع، قليل اللفظ، كثير المعنى

فحديث واحد يتضمن من الأفكار والمعانى الكثير والكثير؛ والأمثلة على ذلك كثيرة متنوعة وظاهرة واضحة ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : " إنما الأعمال بالنيات " الذى قال عنه الشافعى: " هذا الحديث ثلث العلم، ويدخل فى سبعين باباً من أبواب الفقه "[٢]

الدقة في التصوير:

الخطاب النبوي الشريف أدرك قيمة التصوير : من تشبيه ، واستعارة ، وكناية في التأثير على العواطف الوجدانية والمشاعر النفسية فضرب بسهم وافر في هذا الميدان .

---

(١) رواه مسلم من حديث أبى هريرة – كتاب المساجد ومواضع الصلاة – ٦,٥/٥

(٢) أخرجه أحمد وأبو داود والنسائى والترمذى وابن ماجة من حديث أبى سعيد. وإسناده صحيح. يراجع مشكاة المصابيح ح (٣٧٠٥) ٢٥٤,٢٥٣/٧، وجامع الأصول ٢٣٦/١

الجزالة والرقة:

استخدم رسول الله صلى الله عليه وسلم الألفاظ الرقيقة السهلة اللينة في المواقف التي تناسبها تلك الصفة فكان هادئاً ، وقد يكون حواره ذا نبـــرة عاليـــة عندما يتطلب الموقف ذلك.

المرونة والسعة:

تميز الحديث النبوي الشريف بالسعة والمرونة والقابلية لتعدد الأفهام، وهذه السعة والمرونة مما ييسر ويوسع على الأمة فى العمل، وفى ذلك إثراء للمعنى. وهي ميزة اختص بها الإسلام بشكل عام ، والحديث النبوي بشكل خاص، ومن ذلك: قوله صلى الله عليه وسلم: " لا يصلين أحد العصر إلا فى بنى قريظة " فأدرك بعضهم العصر فى الطريق وقال بعضهم: لا نصلى حتى نأتيها، وقال بعضهم: بل نصلى لم يرد منا ذلك. فذكر ذلك للنبى فلم يعنف أحداً منهم. فمن الصحابة من نظر إلى ظاهر اللفظ وحقيقته فأخر الصلاة إلى وقت العشاء، ومنهم من نظر إلى المعنى لا إلى اللفظ فصلوا حين خافوا فوات الوقت. وهنا نلمح أن معنى الحديث يحتمل الأمرين، وهذا الاحتمال أدى إلى مرونة الحديث وسعة معناه ليشمل كلا الفريقين، وهذا مما يعد من محاسن الإسلام.

السهولة والوضوح:

معاني الخطاب النبوي ظاهرة واضحة ؛لأنها لهداية الناس جميعاً ،عربـــي وعجمي، عالم وجاهل، عادي ومثقف وليست لفئـــة دون فئـــة، أو مجتمـــع دون مجتمع، أو لجيل دون جيل، أو لأصحاب الفهوم العالية دون من سواهم ، يقـــول تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَـــا نُـــزِّلَ إِلَـــيْهِمْ وَلَعَلَّهُـــمْ يَتَفَكَّـــرُونَ﴾ (النحل: ٤٤) وهي سمة واضحة، وظاهرة، ومطردة في كل الخطاب النبوي.

السمو والرفعة والقوة والفخامة :

معاني الخطاب النبوي سامية رفيعة القدر، شريفة الذكر؛ قوية في تأصيلها للفضائل والأخلاق، فهي تدعو إلى طريق الهدى والصلاح والإصلاح ، وتحض على فعل الطاعات، وتنهي عن المعاصى والمنكرات؛ إذ خرجت من مشكاة النبوة على لسان من لا ينطق عن الهوى ، والاستدلال لهذا المعنى من السعة بمكان، ويكفى فيه مراجعة حديث فى أمر من الأمور التي حض عليها الإسلام، كصلة الرحم، والإحسان إلى الجار، والصدق فى الحديث إلخ. ومراجعة حديث فى نهي من النواهي التي أمر الشرع باجتنابها ،كالكذب، والغيبة، والحسد، والرياء إلخ.

الوسطية :

لقد حث الرسول صلى الله عليه وسلم أمته على التيسير ،ونهاهم عن التعسير والتشديد حتى لا ينفر الناس من الإقبال على الدعوة ، قال رسول الله "يسروا ولا تعسروا وبشروا ولا تنفروا"(١)

كما ورد فيما روته عائشة " يا أيها الناس عليكم من الأعمال ما تطيقون ، فإن الله لا يمل حتى تملوا وإن أحب الأعمال إلى الله ما دام و إن قل".(٢)

الواقعية :

ويتسم الخطاب النبوي بالواقعية فهو خطاب لواقع الإنسان يراعي واقع الإنسان من حيث هو مخلوق مزدوج الطبيعة . فالمتأمل للخطاب النبوي في توجيهه للصحابة يجده مواكباً للواقع ، يعيش آلامه وآماله عَنْ حَنْظَلَةَ ، قَالَ : كُنَّا

---

(١) صحيح البخاري ، كتاب الآداب ، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم يسروا ولا تعسروا.

(٢) صحيح مسلم ، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضيلة العمل الدائم من قيام الليل وغيره.

عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، فَوَعَظَنَا فَذَكَرَ النَّارَ ، قَالَ : ثُمَّ جِئْتُ إِلَى الْبَيْتِ فَضَاحَكْتُ الصِّبْيَانَ وَلَاعَبْتُ الْمَرْأَةَ ، قَالَ : فَخَرَجْتُ ، فَلَقِيتُ أَبَا بَكْرٍ فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لَهُ ، فَقَالَ : وَأَنَا قَدْ فَعَلْتُ مِثْلَ مَا تَذْكُرُ ، فَلَقِينَا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَقُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، نَافَقَ حَنْظَلَةُ ، فَقَالَ : مَهْ فَحَدَّثْتُهُ بِالْحَدِيثِ ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ : وَأَنَا قَدْ فَعَلْتُ مِثْلَ مَا فَعَلَ ، فَقَالَ يَا حَنْظَلَةُ : " سَاعَةً وَسَاعَةً، وَلَوْ كَانَتْ تَكُونُ قُلُوبُكُمْ كَمَا تَكُونُ عِنْدَ الذِّكْرِ لَصَافَحَتْكُمُ الْمَلَائِكَةُ حَتَّى تُسَلِّمَ عَلَيْكُمْ فِي الطُّرُقِ "(١).

الإيجابية :

تبصير الفرد المسلم بمسؤوليته تجاه الواقع الذي يعيشه، ودفعه نحو الحركة الإيجابية حتى يغير هذا الواقع بتغيير ما في نفسه أولا، وبذلك ينصلح حال الفرد والمجتمع ، فالشاب المسلم ينبغي ألا يتوقف عن العمل حتى مع قيام الساعة، وهذا يشكل قمة الإيجابية ،كما جاء في الحديث الشريف عن أنس بن مالك ، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن قامت على أحدكم القيامة وفي يده فسيلة فليغرسها".(٢)

مراعاة التدرج:

وهي سمة رائعة من سمات الخطاب النبوي والتي ينبغي علينا تفعيلها في خطاباتنا : الأم مع أبنائها ، والأب مع أسرته، والرئيس مع مرءوسيه ، والراعي مع رعيته ؛ إذ هي سمة من شأنها التحبيب في العمل وسرعة الاستجابة لما يطلب وعدم إسراع الملل للنفوس ،فيصلح القلب وتربى النفس على الطاعة شيئاً فشيئاً ؛ لأن الجهد الموصول المكثف يصيب النفس بالسآمة والملل والتوقف عن العمل ، ومن أمثلة ذلك في الخطاب النبوي ما رواه ابن عباس رضي الله عنهما

(١) صحيح مسلم ، كتاب التوبة ، باب فضل دوام الذكر والفكر في أمو الآخرة .
(٢) مسند أحمد بن حنبل ، حديث رقم١٢٧٠٥.

"أن النبي صلى الله عليه وسلم بعث معاذا – رضي الله عنه– إلى اليمن فقال ادعهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأني رسول الله فإن هم أطاعوا لذلك ، فأعلمهم أن الله قد افترض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة فإن هم أطاعوا لذلك فأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة في أموالهم تؤخذ من أغنيائهم وترد على فقرائهم"(١).

الانفتاح على خبرات الآخرين:

من خصائص الخطاب النبوي الانفتاح على خبرات الآخرين والاستفادة من الجانب الحسن منها .

"الحكمة ضالة المؤمن حيثما وجدها فهو أحق بها"

من تعلم لغة قوم أمن شرهم".

التميز في طريقة الأداء :

لم يكن خطابه صلى الله عليه وسلم مميزاً من ناحية فصاحته وبلاغته فحسب ، وإنما كان صاحب قدرة هائلة في التأثير من خلال الإلقاء الشخصي، فكان يهب الموقف حياة ونشاطاً فيحفز المشاعر، وتستعد القوى النفسية لتلقي المعلومات من أجل التنفيذ في حيز الواقع.(٢)

رابعاً : **مفهوم السلم** :

(السين واللام والميم) مادة تفيد معنى التخلص من الآفات والنجاة منها، يقال : سلم من الأمر ، إذا نجا منه، وكذا ما اشتق من هذه المادة، فهو يدل على هذا المعنى ، ومن ذلك السُّلم وهو ما يتوصل به إلى الأماكن العالية ؛ لأن الصاعد

---

(١) إعلام الموقعين عن رب العالمي كتاب عمر في القضاء وشرحه، القول في القياس ، فصل حديث معاذ حين بعثه الرسول إلى اليمن

(٢) تربية الأطفال في ضوء القرآن والسنة بديوي ، يوسف ، و قاروط ، محمد محمد ١٤٢١هـ دار المكتبي للطباعة والنشر والتوزيع دمشق ، سورياج١ صـ٣٠٩

عليه أو النازل يرجى له السلامة به ، ومن ذلك أيضاً : السلام وهو الحجارة الصلبة سميت بذلك لسلامتها من الرخاوة فتكون بذلك أبعد شيء في الأرض من الفناء والذهاب ، لشدتها وصلابتها.

ويطلق لفظ(السلم) ويراد به : الصلح والمهادنة ، وضده الحرب ،وسمي الصُّلح سلاماً؛ لأنه يحصل به سلامة من القتال وتبعاته، قال ابن منظور: (السِّلم والسَّلم : الصلح يفتح ويكسر، ويذكر ويؤنث) ومنه قول الله تعالى: "فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ وَيَكُفُّوا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ" . النساء (٩١)

وفي مقاييس اللغة (السين واللام والميم): معظم بابه من الصحة والعافية، ويكون فيه ما يشذ، والشاذ عنه قليل ،فالسلامة : أن يسلم الإنسان من العاهة والأذى.(١)

فالله جل شأنه :هو السلام ؛ لسلامته مما يلحق المخلوقين من العيب والنقص والفناء ،قال الله جل جلاله :" وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَىٰ دَارِ السَّلَامِ" يونس ٢٥ ، ومن معناه المسالمة أي : تجنب الحرب.

خامساً : استثمار بلاغة الخطاب في إقرار السلم المدني ويتطلب هذا معرفة :

أولاً : أهمية الكلمة وخطرها :

الكلمة لها دور كبير وأثر خطير فى حياة الفرد والمجتمع وإقرار السلم والأمن وسيادته بين الأفراد والجماعات والدول فهي منطلق الأعمال الكبيرة ، بل هي الوقود الأول للمعارك ، والصراع الحقيقى اليوم صراع

وما هي إلا حلقة من حلقات استعادة الأمة دورها الحضارى بنشر الكلمة الطيبة وتربية الأجيال عليها.

---

(١) معجم مقاييس اللغة، ابن فارس مادة (س ل م).

الكلمة مسئولية لابد أن نعي كيف نتعامل معها، فكلمة نابية تؤدي إلى خصومة، وكلمة جافية تفرق شمل أسرة، وكلمة طاغية تخرج الإنسان من دينه ، والعياذ بالله ، وفى المقابل كلمة حانية تنقذ حياة، وكلمة طيبة تجمع شملاً، وكلمة صادقة دخل الجنة.

الكلمة خطرها عظيم. إذ يترتب عليها الشر كما يترتب عليها الخير وتترتب عليها الحرب كما يترتب عليها السلم، وبها تشيع الفتن، كما بها تخمد الفتن.

فبوابة الإسلام ، ومفتاح الجنة كلمة : لا إله إلا الله محمدُ رسول الله. والخروج من الإسلام قد يكون بكلمة والعياذ بالله فالإنكار والجحود والاستهزاء بدين الله، والسب لله ولرسوله كل هذا مصدره الكلمة.

الزواج يقع بكلمة والطلاق كذلك يقع بكلمة، وكذلك العتق كلمة، الكذب كلمة، والصدق كلمة، الغيبة إفشاء السر: خيانة بالكلمة، المراء والجدال والخصومة: يوغر الصدور ويولد الأحقاد عن طريق الكلمة.

القذف : كلمة ، يعاقب عليها القاذف بثمانين جلدة تلهب ظهره.

الحلف : كلمة ، النميمة كلمة، وهي الحالقة، حالقة الدين لا حالقة الشعر، شهادة الزور كلمة.

اللعن : كلمة

السب والشتم ما هو إلا كلمة

فإنها أمانة ومسئولية ورسالة، ويكفى أنها مناط الثواب للإنسان وضابط للحسنات والسيئات.

بالكلمة نقدم نصيحة ونحيي سنة ونميت بدعة.

بالكلمة نقدم رأياً ونقترح فكرة.

بالكلمة ننشر دعوة، وننشط خاملاً، ونخطط مشروعاً.

بالكلمة نهدي ضالاً ونعلم جاهلاً، ونرشد تائهاً، ونذكر غافلاً.

بالكلمة نسهم فى نشر السلم وإشاعة الخير.

ومن هنا لابد من تعظيم دور الكلمة وعدم الاستخفاف بها فما أجمل أن يكون الإنسان صاحب كلمة طيبة مع الناس جميعاً، من عرف ومن لم يعرف، من كان صاحب خلق حسن وصاحب خلق سئ، من تمتع بلسان طيب ومن ابتلى بلسان بذئ.

لابد من الكلمة الطيبة مع الوالدين، ولو قسوا واغلظا فى الكلام والتعامل فإن لهما حقاً فى حسن الخطاب.

لابد من كلمة طيبة بين الزوجين بدل التراشق بالألفاظ الجارحة، والكلمات النابية التي قد توصل إلى ما لا تحمد عقباه.

لابد من كلمة بين الأخوة والأخوات والأقارب والأرحام، وبين الجيران وفى المنازل والأسواق وفى المجتمع كله.

والخطاب الجيد البليغ له أثر فاعل فى الغوص داخل النفس البشرية لأنه يوقظ الهمم، ويحرك العواطف ، ويزكى المشاعر ويثير التفكير، وهو مفتاح الدعوة والقبول ، ونشر لألفة والمودة فى المجتمع ، وتعميق أواصر الوحدة بين الناس.

كما نعلم أن حرب الكلمات مقدمة لحرب القذائف والأسلحة، فلابد من إحياء خطاب السلام، خطاب العقل والحلم والأناة، خطاب المصالحات الذى يجعل السلام يظلل بيوتنا وحقولنا وأسواقنا وترابنا ونفوسنا وأسرنا ومجتمعاتنا، لابد من إحلال الحوار حل القتال ،واستبدال المحبة بالعداوة.

ثانياً : أهمية الخطاب وضرورة استثماره فى إقرار السلم المدني

تتشابك المنافع ، وتتداخل المصالح ، وتتزاحم الدوافع ، ويكثر المد والجزر ، والشد والجذب، والمنع والعطاء، والحب والكره ، ومن شأن كل هذا أن يولد الصراع والخصومة بين الأفراد وبين الجماعات وبين الشعوب

ومن هنا تعظم أهمية صناعة الخطاب القادر على إقرار السلم وإخماد النزاع ، ويصبح وجود الخطاب القدوة ضرورة ملحة ، ذلك النموذج الأسمى و الأمثل لخطابات البشر، إنه الخطاب النبوي ذلك الخطاب القادر على إقامة سلام شامل ، سلام قائم على الحب والرحمة، الرحمة الإنسانية الخالصة ؛ لأنه خطاب يذكر بوشائج القربى ، وصلات الأخوة ، خطاب يوقظ الضمائر ، ويحرك الهمم، ويقوي الصلات ، ويوطد العلاقات ، وينظم المعاملات ، ويحرم الخصومات، ويعزز الإيجابيات ، ويمحو السلبيات ، ويخفي الصراعات، ويحفظ الكرامات ، فتنشأ السماحة وينتشر السلم ، ويعم الأمن ، ويسود الاستقرار

إننا إذا أتقن صناعة الخطاب سادت أمة الإسلام و ارتقت نحو العلا ، وصمدت في مواجهة التحديات التي تعمل جاهدة للنيل من دنيها و إسلامها و حضارتها ، فهو الوسيلة لعرض الفكرة من من غير تعصب أو صراع و هو وسيله الإقناع بالتي هي أحسن ، و الخطاب الراقي المقنع المؤثر يعد بديلاً عن الصراع و الفرقة و التمزق و تراشق الاتهامات .

و يعد السياج الواقي من الفتن ، والحصن المنيع الذي يصعب اقتحامه وهو مفتاح الحضارة الزاهرة و النهضة الشاملة و السلم المأمول لأنه هو القادر على تأليف القلوب و إصلاح النفوس و إزالة الغضب و الشعور بالرضا و السعادة .

بل هذا لابد من استثمار بلاغة الخطاب للقيام بمهمة إقرار السلم و ذيوع الأمن و المساهمة في نشر خطاب التسامح و العفو و المودة و الحب و الرفق

إلى غير ذلك من المعاني الإنسانية السامية التي حث عليها الإسلام و رغب فيها و دعا إليها .

و ذلك بوضع الأطر المناسب للقيام بهذا النوع من الخطاب إلقاء الضوء على بعض الحدود و الشروط و المواصفات و المقاييس الغائبة لهذا الخطاب ، والتي كانت سبباً في فقده و فقد فاعليته تلك الفاعلية التي تمتعت بها خطابات المصطفى صلوات الله و سلامه عليه .

لا نبالغ إذا قلنا إن معظم خطابتنا اليوم خفت صوتها و ضعف أداؤها ، وانحسر أثرها ، و أنمحى تأثيرها ، و ضاع هدفها ، و غُيب دورها .

و المعركة اليوم هي معركة خطاب و كلام و صراع فكرة و رأى .

لابد من أن يكون الخطاب علماً له مقوماته وشروطه ووسائله و تقنياته و متخصصوه .

وفناً له أدواته ، إنه صناعة فكرية راقية لابد أن يكون له خططه و مناهجه و مؤسساته التي ينطلق منها ..

إن الحوار مع الآخر لا يزال متخلفاً في ثقافتنا المعاصرة كما هو شأن كثير من أمورنا ، إنه لم يصبح بعدُ منهجاً محدداً أو عملاً مؤسسياً يقوم عليه متخصصون دارسون وملمّون بمسائل الحوار وآدابه وضوابطه وبثقافة الآخر وعلومه وأخلاقه وآدابه.. إلخ ، وذلك لدرء الهجمة الشريرة الشرسة على الإسلام والمسلمين، ولاستكمال شروط الدعوة إلى الله ولا يمكن معالجة ذلك كله إلا بفتح قنوات الحوار مع الآخر.

*****

المبحث الأول

البلاغة في ضوء

النصائح النبوية والتوجيهات الأخلاقية

خطوة في دعم السلم المدني

إن السموات والأرضين حتى النملة فى جحرها وحتى الحوت ليصلون على معلم الناس الخير.

فاللهم صلي وسلم على سيدنا وحبينا ومعلمنا رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى كان لنصائحه النبوية وتوجيهاته الأخلاقية أعظم الأثر وأكبره فى إقرار السلم فى المجتمع .

فقد سار صلى الله عليه وسلم على نور من ربه سالكاً سبيل إنكار المنكر، وتصحيح الخطأ ، وبث القيم النبيلة والأخلاق الحميدة فى المجتمع ، وإدراكنا لهذا المنهج النبوي الشريف فى خطاباتنا، يوفر علينا الكثير من البحث عن الطرق والأساليب الحديثة، والمناهج الجديدة فى تعلم صناعة بلاغة الخطاب ، فكثير من المناهج الحديثة والنظريات الجديدة تستمد أصولها وطرائقها من خطابات نبينا ﷺ، وغير قليل منها واضح الانحراف وقائم على نظريات فاسدة .

لقد كان صلى الله عليه وسلم فى خطاباته رفيقاً بأمته ، ناصحاً أميناً لهم ، مراعياً لأحوالهم منتقياً للأسلوب الأمثل الذى يناسب الحدث، والظرف والشخص، لا يحب التصادم والصراع فى حواراته ، يتقبل أخطاء الآخرين ؛ لأنه يدرك أن الخطأ من طبيعة البشر وكان يقول صلى الله عليه وسلم " كل ابن آدم خطاء وخير الخطائين التوابون ".

وفى هذا الفصل، أتناول بعضاً من توجيهاته الأخلاقية، وتوصياته النبوية التي تعد خطوة كبيرة، وقيمة عظيمة فى دعم السلم وإقراره فى المجتمع.

وتناول كل التوجيهات والتوصيات من الصعوبة بمكان فى هذا البحث ؛ لأن السنة النبوية كلها تعد وحدة متماسكة ،تقف فى وجه العدوان والصراع والتصادم ،وتدعو للمحبة والود والتلاؤم ،ثم هي تتسع لكل ألوان الحياة عقيدة، وعبادة، وأخلاقيات ،تتولى روح الفرد وضميره وعقله وجسده وسلوكه، تتولى الجماعة كما تتولى الفرد، تهتم بالمجتمع كما تهتم بالأسرة، فيها الحلول للمشكلات الاجتماعية والاقتصادية والأخلاقية، فيها النموذج الأمثل للخطاب البشرى الذى يجمع ولا يفرق ، يوحد ولا يمزق ، يلم ولا يشتت، إنه خطاب متكامل حتى فى معالجة مشكلات الحياة، هو لا يعالجها كأجزاء أو تقاسيم أو أشتات، وإنما هو يرجعها إلى أصل واحد ،ويجعلها تدور حول محور واحد ،ولا غرابة فى ذلك فالإسلام دين الوحدة الكبرى ورسوله هو رسول السلام والرحمة للعالم أجمع ومن تلك الخطابات التي تقر السلم وتدعو للأمن قول الرسول صلى الله عليه وسلم:

"المؤمن مرآة أخيه" (١)

هذا الحديث الشريف يمثل قمة البيان النبوي، فقد تعددت فيه مصادر الجمال من وضوح في اللفظ ، ودقة في المعنى، وتكثيف في الصورة ، والحديث يقوم على أصلين من أصول الجمال، **أولهما**: الإيجاز ، فقد تضمن ثلاث كلمات فقط إلا أنه شمل الكثير من المعاني ، وحوى غير قليل من القيم والأخلاق، **وثانيهما** : التشبيه ،فالنبي الكريم بهذه العبارة الموجزة ،يشبه المؤمن في علاقته بأخيه المؤمن بالمرآة التي تكشف الإنسان تكشفه بعيوبه ومحاسنه ، وكذلك المؤمن يكشف لأخيه ما به من عيوب ومحاسن ويصدقه النصيحة ويريه "مواقع

(١) سنن أبي داود رقم الحديث٤٩١٨، ومرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح كتاب الآداب ، باب الشفقة والرحمة على الخلق ، علي بن سلطان محمد القاري، دار الفكر ٢٠٠٢م.

رشده ويطلعه على خفايا عيبه فيكون كالمرآة له ينظر فيها محاسنه فيستحسنها ويزداد منها ويرى مساوئه فيستقبحها وينصرف عنها "[١]

والحديث بلغ الغاية في التصوير، فهو يشبه عمل المؤمن بعمل المرآة ، فالمسلم يعمل عمل المرآة لصاحبها، فالمرآة تري الناظر الحسن والقبح ، والمرآة لا تكشف العيوب والمحاسن إلا لحاملها، وكذلك المسلم لا يفضح أخاه بل يناصحه في السر ويعكس له الصورة الصحيحة ، وكلما كانت المرآة أكثر صفاء وأكثر نقاء كان عكسها للصورة أكثر وضوحاً، ولذلك كان تعبير الرسول صلى الله عليه وسلم بالمؤمن دون المسلم.

وفي انتقاء لفظ (الأخ) وإضافته لضمير الغائب – الراجع على المؤمن – تذكير بوشائج القربى ، وبتلك الصلة القوية صلة الأخوة تلك الصلة التي تحتم الصدق في القول والنصح والتوجيه والإخلاص.

وهذا الحديث – لو تم تفعيله في حياتنا – كفيل بإقامة سلم مدني في مجتمعاتنا ، سلم لا نميمة فيه، ولا ضغينة ولا بغضاء ولا غيبة ؛لأن المؤمن إذا أخلص لأخيه بنيت القلوب على الحب والمودة ، وإذا أخلص لقادته ورؤسائه كان مرآة صادقة لهم ؛ بذكره لإيجابياتهم كما يذكر سلبياتهم، فلا يكون مهاجماً طوال الوقت ؛لأن المهاجمة ليست الهدف الحقيقي الذي يريده الإسلام، بل الدين النصيحة ،كما قال رسولنا صلوات الله وسلامه عليه.

ومن الأحايث التي تنشر السلم في المجتمع :

"الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ النّاسُ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ "[٢]

---

(١) المجازات النبوية، الشريف الرضي ٧١ ، قدم له وضبط عباراته وشرحها : طه عبد الرؤوف سعد، مطبعة البابي الحلبي، مصر، الطبعة الأخيرة١٣٩١هـ،١٩٧١م

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الإيمان ،باب المسلم من سلم المسلمون من لسانه، وسنن النسائي، كتاب الإيمان وشرائعه ، صفة المؤمن حديث رقم ٤٩٩٥ .

إن الإسلام دين أساسه الدعوة إلى كل بر وخير ،ومقاومة كل مضرة وشر، إنه دين الوئام والحب والسلام والأمن.

و هذا الخطاب النبوي الشريف لا يقول: المسلم من صام وصلى وحج وزكى ، ولكنه يقول: المسلم من سلم الناس من لسانه ويده، فمن لم يكن كذلك فليس بمسلم، فمن صلى وهو يرتكب الموبقات ويؤذي المخلوقات فإنه لم يسلم، ومن صام وهو يقول الزور ويعمل الفجور ولا يتقي الله في أموال الناس وأعراضهم ودمائهم فليس بمسلم ومن حج وهو يرفث أو يفسق، أو يجادل أو عاد من حجه وهو يسيئ إلى من يعامله فليس بمسلم.

وقوله:" الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ النّاسُ إلى آخره يدل على الحصر؛ لوقوع جزئي الجملة معرفتين ، و هذا من قبيل قولهم: زيد الرجل، أي زيد الكامل في الرجولية، فيكون التقدير : المسلم الكامل من سلم إلى آخره.

وقال القاضي عياض وغيره : المراد الكامل الإسلام ، والجامع لخصاله ما لم يؤذ مسلماً بقول ولا فعل ، وهذا من جامع كلامه عليه الصلاة والسلام وفصيحه كما يقال: المال الإبل، والناس العرب، على التفضيل لا على الحصر"[١]

فالتعريف بأل يفيد الإحاطة والشمول ، وذلك على سبيل المجاز والمبالغة، لا على سبيل الحقيقة، على نحو قول الزركشي : "زيد الرجل أي الكامل في الرجولية ، وجعل سيبويه صفات الله تعالى كلها من ذلك"[٢]

* * * * *

(١) عمدة القارئ شرح صحيح البخارى للإمام بدر الدين أبي محمد محمود بن أحمد العيني مطبعة دار إحياء التراث العربي ومؤسسة التاريخ العربي، بيروت، دون تاريخ جـ١، صـ١٣٢

(٢) البرهان في علوم القرآن ، بدر الين محمد بن عبدالله الزركشي، جـ٤، صـ٨٨،تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار التراث بالقاهرة ط١٤٠٤،٣هـ-١٩٨٤م .

" عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ أَتَدْرُونَ مَا الْغِيبَةُ قَالُوا اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: ذِكْرُكَ أَخَاكَ بِمَا يَكْرَهُ قِيلَ: أَفَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ فِي أَخِي مَا أَقُولُ، قَالَ: إِنْ كَانَ فِيهِ مَا تَقُولُ فَقَدِ اغْتَبْتَهُ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ فَقَدْ بَهَتَّهُ "(١)

يحرص رسول الله صلى الله عليه وسلم فى هذا الخطاب النبوي الشريف على سلامة العلاقات الاجتماعية وصفائها؛ لأن فى تعكيرها نشاط للحقد والضغينة والبغضاء ، وقضاء على السلم فى المجتمع ،وإحلال الصراع والتنازع مكانه، فكان هذا التوجيه النبوي للمسلمين بترك ذكر مساوئ الناس ورمى الناس بها ؛لأنه أراد قفل الباب بأكمله على من أراد أن يذكر مساوئ الغير بقوله :(إن كان فيه وإن لم يكن فيه) ففى الحالتين ليس بمسموح له ذكر المساوئ ،إنه تقسيم رائع سد الباب على كل من تسول له نفسه ذكر أخيه بما يكره . ففى الأولى غيبة وفى الثانية بهتان وفى كل منهما تعكير لصفو المجتمع وهذا ضد مبادئ الإسلام الذى يدعو للوحدة والألفة والتلاؤم .

ثم هو صلوات الله وسلامه عليه لا يرضيه إلقاء هذا التوجيه على أي صورة ؛بل جاء بأروع أسلوب وأبلغه، لتكون الاستجابة السريعة فهو يذكر الآخر بلفظ (الأخ) فلم يقل: ذكرك الناس أو الغير بما يكرهون لقد كان حريصاً صلوات الله وسلامه عليه على توحيد الأمة وتذكيرهم بحق الأخوة ومتطلباتها، إن الأخوة تفرض على الإنسان صون لسانه عن الإساءة لأخيه، وتشويه سمعته، وتفرض عليه الحب والود لأخيه ،ومراعاته فى غيبته وعدم ذكره بما يكره ،ففى التعبير عنه بـ (الأخ) جذب للمغتاب من غيبته لمن يغتابه إذا كان أخاه ، فأولى له الحنو عليه وطي مساويه ، والتأويل لمعايبه، لا نشرها بذكرها.

(١) صحيح مسلم بشرح النووي ، كتاب البر والصلة والآداب ، باب تحريم الغيبة .

ثم إن استخدام المصدر الصريح (ذكرك) دون المصدر المؤول (أن تذكر) لإفادة ثبوت الذكر، وقوله الذى يترتب عليه كون ذلك غيبة .

ثم لننظر إلى روعة هذا الخطاب، حيث أفرد الضمير فى قوله : (ذكرك أخاك) مع أن السؤال السابق كان للمجتمع (أتدرون) فكان الظاهر أن يقول : (ذكركم أخاكم) ولكنه صلى الله عليه وسلم يرسل خطاباً للأمة كلها خطاباً عاماً شاملاً للحاضر والغائب، لزمانه ولغير زمانه، بتحريم الغيبة على كل إنسان فى كل زمان ومكان ولو قال: (ذكركم أخاكم) لكان الخطاب موجهاً فقط لمن معه فحسب.

إن هذا الحوار بين الرسول صلى الله عليه وسلم وصحابته حوار مدهش، ليتنا نتعلم منه فن الخطاب ،وكيفية إعطاء المعلومة وتثبيتها فى الأذهان ، إن الرسول صلى الله عليه وسلم أراد أن يمنعهم من الغيبة ،فهل أتى وقال لهم :الغيبة حرام ، لا تمارسوا الغيبة ، لا تذكروا أخاكم بما يكره ،مع أنها كلها أساليب تُفهم المطلوب وتوصل للغرض، لا، إن الرسول صلى الله عليه وسلم أدار حواراً هادئاً بينه وبين أصحابه حتى يتمكن المعنى فى النفس، وابتدأهم بهذا السؤال المثير للاهتمام والمشوق للمعرفة أتدرون ما الغيبة ؟ وفى انتقائه للفظ (تدرون) دون تعرفون أو تعلمون؛ لأنه أراد إدراكهم لحقيقتها أما المعرفة والعلم فقد أعرفُ وأعلمُ ظاهر الشئ دون باطنه وحقيقته وهذا ليس بمطلوب بل أراد صلى الله عليه وسلم أن يبين لهم حقيقتها ،ولذلك كان ردهم (الله ورسوله أعلم) أكد هذا تعريفه للغيبة بأل التي للجنس أى حقيقة الغيبة وماهيتها لقد استخدم رسول الله صلى الله عليه وسلم الإطناب ؛ لأن فيه فائدة جديدة كان بإمكانه أن يجيب باختصار وإيجاز على سؤال السائل عندما قال له : أفرأيت إن كان فى أخى ما أقول ؟ كان يمكنه أن يقول : نعم ذلك غيبة لكنه آثر هذا الأسلوب ، أعني أسلوب الإطناب لأن المقام مقام تعليم ، وهذا يقتضي التوضيح والتوضيح يقتضي التفصيل.

*****

عن أبي هريرة رضي الله عنه:

أَنَّ رَسُولَ اللّهِ صَلّى اللّهم عَلَيْهِ وَسَلّمَ قَالَ : " أَتَدْرُونَ مَا الْمُفْلِسُ قَالُوا : الْمُفْلِسُ فِينَا مَنْ لا دِرْهَمَ لَهُ وَلا مَتَاعَ ، فَقَالَ : إِنّ الْمُفْلِسَ مِنْ أُمّتِي يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلاةٍ وَصِيَامٍ وَزَكَاةٍ وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَذَا وَقَذَفَ هَذَا وَأَكَلَ مَالَ هَذَا وَسَفَكَ دَمَ هَذَا وَضَرَبَ هَذَا فَيُعْطَى هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْضَى مَا عَلَيْهِ أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ ثُمّ طُرِحَ فِي النّارِ ".(١)

لقد جاءت ألفاظ هذا الحديث سهلة ومعانيه قريبة إلى نفوس السامعين، والحديث قطعة بيانية رائعة؛ حيث بدأه صلى الله عليه وسلم بعنصر التشويق ، وهو ذلك الاستفهام الذى لا يقصد به الحقيقة وكان بإمكان رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يعطى هذه المعلومة فى صورة الخبر ، أى أن يقول: المفلس هو من يأتى يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة ... الخ ، لكنه عدل عن الخبر إلى الإنشاء استثارة لتفكير المخاطبين وشد انتباههم وإشراكهم معه فى الحوار ؛رفعاً لهممهم وشحذاً لطاقاتهم، وهذه إحدى الوسائل التعليمية التي كان يستخدمها الرسول الكريم.

وقد سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم السؤال ولم يبادر بالإجابة عليه، بل ترك للمخاطبين مساحة للجواب احتراماً لهم، وتثبيتاً لما سيلقيه عليهم، إنه أدب عال من آداب الخطاب ، ثم هو عند الإجابة كان من المتوقع أن يرد عليهم عندما قالوا المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع ،كان الأصل أن يقول: لا، ليس هذا هو المفلس ولو قال ذلك لكان هناك رد آخر من قبل صحابته صلى الله عليه وسلم وهو أن يسأل مرة ثانية فمن المفلس إذا؟

(١) صحيح مسلم بشرح النووي ، كتاب البر والصلة والآداب ، باب تحريم الظلم.

إنه الإيجاز والطي لكلام يدل عليه السياق وفى عدم ذكره فائدة ؛ لأنه لن يقدم ولن يؤخر من الأمر شيئاً إن ما يجب علينا تعلمه فى خطاباتنا مع الآخر، عندما نريد إيصال معلومة معينة أو فكرة محددة – ألا نشتت ذهن المتلقي ، أو نُطِل فى حديث من الممكن إيجازه واختصاره دون خلل فى إيصال الفكرة؛ لأن هذه المشكلة نعانى منها كثيراً فى خطابنا مع الآخر إذ يكون الخطاب فى موضوع معين أو فكرة محددة ،ثم نراه بعد ذلك يخرج عن إطاره ولا نجنى من هذا إلا الصراع وتشتت الفكر والخروج عن أصل الموضوع، فينبغي تعلم فنون الخطاب من خطابات رسول الله مع أصحابه ، فبعد أن أوجز نراه بسط الأمر فيما يستحق البسط ،وفيما يخدم الفكرة، ويحقق الهدف الذى سيق الخطاب لأجله.

وقد تمثل هذا البسط والإطناب فى قوله وقد شتم هذا ، وقذف هذا وأكل مال هذا ، وسفك دم هذا ، مع أنه كان بإمكانه صلى الله عليه وسلم الإيجاز بقوله المفلس هو من يرتكب المعاصي لكنه صلى الله عليه وسلم أراد أن يوسع فى هذا الأمر لأنه أراد أن ينفر من هذه الأنواع المتعددة من المعاصي ؛ لأنها سبب فى إقامة الصراع والحرب بين الأفراد والتناحر والتنازع ،ثم يعود الخطاب مرة أخرى إلى الإيجاز عندما يتطلب الخطاب ذلك فيقول صلى الله عليه وسلم بالبناء للمجهول " أخذ ، طرحت ، طرح فى النار " أى أن الملائكة الموكلة بالعذاب قد أخذته بالقوة وهو يمتنع ويتوسل لهم أن يتركوه ولكنها مأمورة بذلك فتفعل ما تؤمر به، وعِوَضَ هذا التطويل فى الكلام أتى صلى الله عليه وسلم بهذه الأفعال المبنية للمجهول والتي يفهم منها كل ما تقدم.

إن الرسول صلى الله عليه وسلم أراد بهذا الحديث أن يبين لأصحابه المفلس الحقيقى، وأراد صلى الله عليه وسلم أن يصحح مفهوماً قد رسخ فى العقول، بأن المفلس هو الرجل الفقير الذى لا يملك ديناراً ولا درهماً والذى لا متاع لديه ، وأراد أن يرسم لهم صورة " الإفلاس الحقيقى من خلال حالة هذا

الرجل الذى أضاع الحسنات يوم القيامة فى ذلك اليوم الذى لا يباح للمرء أن يكسب شيئاً، ومن ثم يطرح فى النار ، إن العدالة الإلهية لن تدع مظلوماً فى ذاك اليوم حتى تنتصف له من ظالمه "[١]

و" من بديع البيان النبوي أن الرسول صلى الله عليه وسلم استخدم صورة من صور الحياة الدنيا الشائعة بين الناس ليطبقها على قضية من قضايا الجزاء الأخروى هي أحرى بأن تطبق عليها ، فالناس يعرفون فى أسواقهم التجارية من هو المفلس ؟، ويعرفون كيف يحدث له الإفلاس عند اجتماع الدائنين عليه ؟، وعجز أمواله عن الوفاء بحقوقهم "[٢]

لقد استخدم الرسول فى هذا الخطاب النبوي من وسائل التصوير الوصف الدقيق الحى للمفلس الذى رمى من خلاله امتناع الناس من الظلم فى الدنيا ؛لأنه إن استطاعه فى الدنيا لقوته ونفوذه وسلطانه فإنه فى الآخرة سيجرد من كل ذلك؛ لأن العدالة الإلهية لن تدع مظلوماً يوم العرض على الله إلا وتنتصف له من ظالمه .

إن هذا الوصف الرائع للمفلس يجعل المتلقي ينزعج من هذا الإفلاس الحقيقى، وهو ذلك الرجل الذى أضاع الحسنات يوم القيامة ،وهو اليوم الذى لا يستطيع الإنسان فيه أن يكسب شيئاً.

إن الحديث الشريف لوحة فنية رائعة اشتملت على أساليب بلاغية متنوعة تخدم المعنى وتبرزه فى أجل صورة وأوضحها ؛ فقد عبر الرسول صلى الله عليه وسلم بالفعل المضارع بعد الهمزة لكونه يسأل عن معرفتهم في تلك الحال ، وهذا

---

(١) التصوير الفنى فى الحديث النبوى محمد لطفى الصباغ ، ٤٩٥ ، المكتب الإسلامي ، بيروت ط ١ ، ١٤٠٩ هـ ١٩٨٨م .

(٢) روائع من أقول الرسول – صلى الله عليه وسلم – دراسات لغوية وفكرية وادبية تأليف / عبد الرحمن مكتبة الميدانى ص ٤١٢ دار القلم دمشق ط ٤ / ١٤٠٧ هـ / ١٩٨٧م .

لكي يصحح لهم مفهوم كلمة المفلس ، فأسلوب الاستفهام هنا خرج من معناه الأصلي إلى معنى آخر وهو تحديد المفاهيم ، فهو يقدم للمفلس مفهوماً جديداً معنوياً وليس مادياً.

وجاء التنكير فى قوله: (صلاة وصيام وزكاة) للدلالة على كثرتها ، ومع ذلك لم تغن عنه شيئاً، ولم تدفع عنه العذاب ،ثم انظر إلى مراعاة النظير فى هذه الكلمات الثلاث فعلى الرغم من تنوع عباداته وكثرتها إلا أنها لم تغن عنه وفى ذلك إشارة إلى أن (الشتم والقذف وأكل مال التيم) كلها أشياء تؤثر بشكل كبير فى ميزان الحسنات فتحوله إلى السيئات، ويتحول الربح إلى الخسران ، وفى استخدامه صلى الله عليه وسلم لفعل الشرط (إن) الذى يفيد الشك " إشارة إلى واسع رحمة الله التي يضاعف بها ثواب الحسنات ، حتى يقل فى المسلمين من تفنى حسناته قبل أن يسدد ما عليه من مظلمات لأصحاب الحقوق.

إن تكثيف الصورة البيانية فى هذا الخطاب النبوي الشريف خدم المعنى ،وقد تمثلت هذه الصورة فى الكناية عن كثرة القتل بسفك الدماء، والكناية عن الطمع وحب المال بالأكل ،ثم تلك الاستعارة التبعية فى الفعل قذف فشبه صلى الله عليه وسلم الكلام السئ بالشئ الذى يرمى ويقذف بجامع شدة الألم فى كل. وذلك على سبيل المجاز المرسل إذ إن (المال) لا يؤكل وإنما الذى يؤكل هو الطعام فهو مجاز مرسل علاقته السببية فالمال سبب فى إحضار الطعام فأطلق السبب وأراد المسبب ، أو أنه قد شبه المال بالطعام وحذف المشبه به ورمز له بشيء من لوازمه وهو الأكل ، والعلة من هذه الاستعارة تبشيع هذا المنظر، ووضع هذا الشخص في صورة ذلك الرجل الذي يلتهم المال ويقضي عليه مثل ما يقضي على الطعام.

ثم أراد صلى الله عليه وسلم أن تكون هذه الصورة البشعة من (الشتم والقذف والأكل) ماثلة قريبة من ذهن المخاطب، فقرب لهم أصحاب الحقوق وأهل

المظلمات بالتعبير باسم الإشارة (هذا) فالمظلوم قريب منه محيط به يطالب بحقه وفى تعبيره بـــ (قد) التي هي لتأكيد الفعل فى قوله: (وقد شتم هذا) دلالة علـــى أنه لا مجال للتراجع أو الإنكار فأفعاله مؤكدة وكذلك عقابه مؤكد تأكيـــد أفعالـــه، وللتأكيد على قبح هذه الأفعال وشناعتها قصر الإفلاس عليها بقولـــه : (المفلـــس مَنْ).. فقصر صفة الإفلاس على ما ذكر ..... وفى هذا القصـــر مـــا فيـــه مـــن الترهيب والتشنيع لهذه الأفعال، وفى تعداد هذه الأفعال دليل واضح على أنه كـــان إنساناً متخبطاً يشتم ويقذف ويأكل ويسفك ويضرب ،لا دين يردعه ولاشرع يرده بل هوى يتبعه.

******

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:
" إِيَّاكُمْ وَالْجُلُوسَ فِي الطُّرُقَاتِ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا لَنَا مِنْ مَجَالِسِنَا بُدٌّ نَتَحَدَّثُ فِيهَا، قَالَ: فَأَمَّا إِذَا أَبَيْتُمْ إِلا الْمَجْلِسَ، فَأَعْطُوا الطَّرِيقَ حَقَّـــهُ، قَـــالُوا: يَـــا رَسُولَ اللَّهِ، فَمَا حَقُّ الطَّرِيقِ؟ قَالَ: غَضُّ الْبَصَرِ، وَكَفُّ الأَذَى، وَرَدُّ السَّلامِ، وَالأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ، وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ "(١)

إن الرسول صلوات الله وسلامه عليه يعلمنا فى هـــذا الخطـــاب النبـــوي الشريف الأخلاق السامية والآداب العالية ،إنه خطاب يهدف إلى الرقى بـــالمجتمع المسلم ،والوصول به إلى معالي الأمور من محبة وألفة وترابط ومودة عن طريق رعاية حقوق الآخرين ، والحفاظ عليهم، وعدم إيذائهم بشئ من أنواع الإيذاء .

فقد ذكر فى هذا الخطاب حق الطريق من: غض للبصر، وكف للنظر عـــن المحرمات ، وكف الأذى بجميع أنواعه كالسب والشتم واللمز والاستهزاء والسخرية

(١) البخاري ،كتاب المظالم ،باب أفنية الدور والجلوس فيها والجلوس على الصعدات رقم ٢٣٣٣ ج٢،صـــ٨٧٠

... ، ذكر أيضاً من حق الطريق: رد السلام فهو تحية المسلمين وهو اسم من أسماء الله تعالى ، فهو دعاء بالسلامة والرحمة والبركة . ثم ختم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

إن مجتمعاً يقام فيه حق الطريق بهذا الشكل لهو مجتمع راقٍ سامٍ يتخلل فيه السلام ويتنفس منه الأمن وتغطيه الطمأنينة والاستقرار .

لقد بدأ النبى صلى الله عليه وسلم خطابه بذلك التحذير الذى يحفز الهمم، وينزه النفوس عن ارتكاب مثل هذه الأشياء ، فنهاهم عن الجلوس فى الطرقات "وقد تبين من سياق الحديث أن النهي عن ذلك للتنزيه لئلا يضعف الجالس عن أداء الحق الذي عليه، وأشار بغض البصر إلى السلامة من التعرض للفتنة بمن يمر من النساء وغيرهن ، وبكف الأذى: إلى السلامة من الاحتقار والغيبة ونحوها، وبرد السلام إلى إكرام المار ، وبالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلى استعمال جميع ما يشرع وترك جميع ما لا يشرع"(١).

ثم لننظر إلى شخص رسول الله صلى الله عليه وسلم تلكم الشخصية الرائعة المرنة التي تتقبل الحوار والمناقشة وتنزل على رغبة المتلقي إن لم تخالف شرعاً ، فهو الرحمة المهداة والسراج الوهاج ، إنه رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى يعلمنا فى خطاباته الرقى والأدب العالي، وعدم التصلب فى الرأى ،وعدم التشدد فى القول.

لقد استجاب لصحابته رضوان الله عليهم عندما أخبروه بأنهم لا يستطيعون الاستغناء عن الجلوس فى الطرقات، هل قال لهم : لقد أمرتكم بعدم الجلوس فنفذوا الأمر، والله ماكان للبلسم الذى يداوى القلوب والجراح أن يقول ذلك ولكن كان رده مثالاً رائعاً للدبلوماسية الراقية. (فإذا أبيتم إلا المجلس فأعطوا الطريق

(١) فتح الباري بشرح صحيح البخاري ، ابن حجر العسقلاني،جـ٥،صـ١٣٥.

حقه) ؛ لأنه يعلم أنهم لن يستطيعوا الاستغناء عن شئ قد ألفوه ،واعتادوا عليه فى حياتهم، فلم يشأ أن يدخل معهم فى صراع، أو أن يتسبب في مضايقتهم ، إنه رسول الرحمة والسلام الذي يقبل التفاوض ويقره ما دام في صالح المجتمع.

إن الرسول ﷺ لم يمنعهم مما اعتادوا عليه، فى الوقت الذى لم يتهاون فى ضياع حق الدين والشرع ،وهكذا يكون الخطاب الذى لابد أن نتعلمه ونعلمه لأبنائنا، نعلمهم أن التفاوض مجاله واسع مادام لا يتصادم مع دين الله ...

وهذا ما فعله الرسول صلى الله عليه وسلم فلم يمنعهم من الجلوس فى الطرقات بشرط إعطاء الطريق حقه، فكان هذا الأمر الذى هو للإرشاد والتوجيه (أعطوا)، ومن هنا بدأ الصحابة يسألون عندما ارتاحت نفوسهم لهذا الحوار الطيب، بدأوا يسألون عن حق الطريق بقولهم: وما حق الطريق يا رسول الله ؟ فأجاب بكلمات موجزة لكنها تحمل من المعانى الغزيرة ما تحمل، إن كل جزئية من هذه الجزئيات جديرة بأن تقر سلماً مدنياً فى المجتمع ؛ لأنها كلها خطوات لنزع أسباب التطاحن والخلاف، وجلب لأسباب التوحد والتعاون.

لقد جاء تعبيره بالمصدر، لأنه أشمل وأعم وأثبت، فهو اسم غير مقيد بزمن من الأزمنة والرسول ﷺ أراد أن يضع قاعدة عامة وقانوناً لحق الطريق ، هذا القانون هدفه إثبات هذه المعانى، أى إثبات الغض للبصر والكف للأذى، والرد للسلام، والأمر للمعروف، والنهي للمنكر، دون أن يقتضى تجددها شيئاً بعد شئ .

جاء فى نهاية الإيجاز : " الاسم له دلالة على الحقيقة دون زمانها ، فإذا قلت (زيد منطلق) لم يعد إلا إسناد الانطلاق إلى زيد ، وأما الفعل فله دلالة على الحقيقة وزمانها، فإذا قلت : (انطلق زيد) أفاد ثبوت الانطلاق فى زمان معين لزيد وكل ما كان زمانياً فهو متغير ، والتغير مشعر بالتجدد .[١]

---

(١) نهاية الإيجاز فى دراية الإيجاز للإمام فخر الدين الرازي تحقيق نصر الله بن محمد بهاء الدين، دار صادر بيروت

ثم هو عندما جاء إلى الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر عرفهما (بأل) ولم يقل وأمر بالمعروف ونهي عن المنكر ، إنه الأمر المحدد المعروف ليس أى أمر بل هو بالمعروف ، وليس المقصود أى نهي إنه النهي عن المنكر كما أفادت (أل) التي فى المعروف والمنكر أفادت الاستغراق أى كل معروف وكل منكر .

إنه بيان محمدى يرتفع بالمجتمع ، ويجعله يعيش فى هدوء ونقاء مثل هدوء ألفاظ ذلك الحديث ووضوحها.

وخطاب نبوي يشتمل على نصائح جليلة، ووصايا فيها فوائد عظيمة ، فهو قول مفيد موجز مختصر من رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى مجتمع الصحابة وإلى جميع الأمة " والقول المفيد هو ذلك الذي تنجر عنه نتائج عملية تكون في فائدة المستمع"(١)

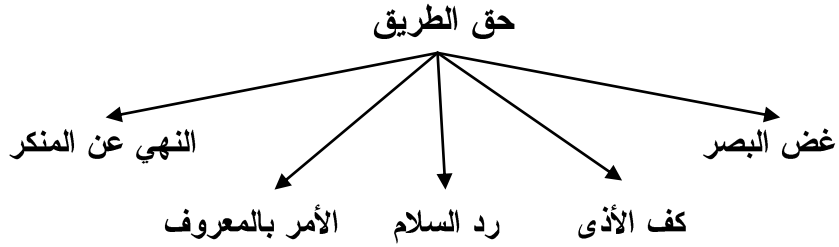

ومن الخطابات التي ترتفع أيضاً بالمجتمع ،وتقوي الأواصر بين أفراده ، وتشيع السلم فيه تلك الخطابات التي تدعو للتعاون.

ومن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم: " مَنْ نَفّسَ عَنْ مُؤْمِنٍ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ الدُّنْيَا نَفّسَ اللّهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، وَمَنْ يَسّرَ عَلَى مُعْسِرٍ يَسّرَ اللّهُ عَلَيْهِ فِي الدّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللّهُ فِي الدّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَاللّهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ ، وَمَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ

(١) تحليل الخطاب المسرحي في ضوء النظرية التداولية ، عمر بلخير،صـــ١٠٤ منشورات الاختلاف، الجزائر، العاصمة ط١،٢٠٠٣م

عِلْمًا سَهَّلَ اللّهُ لَهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنّةِ ، وَمَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللّهِ يَتْلُونَ كِتَابَ اللّهِ وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ ، إِلّا نَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السّكِينَةُ، وَغَشِيَتْهُمُ الرّحْمَةُ، وَحَفّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ، وَذَكَرَهُمُ اللّهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ، وَمَنْ بَطّأَ بِهِ عَمَلُهُ لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ "

ما أروع هذا الحديث، وما أرق موسيقاه الداخلية، وما أشد التلاحم بين أجزائه ، إنك حين تقرأه تشعر أنك تطوف فى رياض نضرة مزينة بالورود، وأنت تسير فى رحابها فى هدوء وسكينة، فمعانى هذا الحديث يضيق المقام عن بسطها وتفصيلها، وألفاظه عليها مسحة من الرقة والتناغم والتلاحم فيما بينها، وخذ مثلاً قوله : صلى الله عليه وسلم : مَنْ نَفّسَ عَنْ مُؤْمِنٍ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ الدّنْيَا نَفّسَ اللّهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ "إن تنكير كربة يفيد العموم ؛ ليشمل أية أزمة من الأزمات من زلازل وسيول ومحن لا يعلم مداها إلا الله ، وكربة القيامة أعظم ؛ ولذلك لا يفرجها إلا الله عز وجل "(١)

(ومن سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله له به طريقاً إلى الجنة) ترى وأنت تقرأ وتردد هذا الجزء من الحديث كأنك ترافق هذا السالك، وتأمل فى اختياره للفعل (سلك) دون (مشى) أو نحو ذلك، وكذلك الفعل " يلتمس " بصيغة المضارع دون(يطلب أو يحصل) أو نحو ذلك، وكذلك الفعل (سهل)، إن هذه الأفعال برقتها وعذوبتها مما يناسب هذا الموقف وهذه الحال حال طالب العلم، وما يتطلبه العلم من تحمل ومثابرة، و هي برقتها تبين الرفق والتمهل والتريث فى الطلب، وعدم التعجل مع التزام الهدوء والسكينة والتأنى فى الطلب والتحصيل وهي من الصفات والأخلاق التي يجب أن يتحلى بها طالب العلم. وخذ مثلاً آخر من الحديث نفسه، هو قوله صلى الله عليه وسلم وما اجتمع قوم فى بيت من

(١) من بلاغة الحديث النبوي تأليف محمد أحمد سحلول جـ٣ صـ١١٩،ط١، دار الاعتصام- القاهرة ١٤١٦هـ-١٩٩٦م

بيوت الله يتلون كتاب الله... إلخ) تشعر وأنت تقرأ هذه الفقرة من الحديث كأنك فى محراب العلم، وقد نزلت عليك السكينة، وغشيتك الرحمة...، إن ألفاظ الحديث بعذوبتها تنساب على اللسان وتدخل إلى الأذن بلا استئذان، وفيها من التلاحم والتناغم ما فيها.

ولقد ختم هذا الحديث بعبارة مسجعة، وهي قوله صلى الله عليه وسلم: (ومن بطأ به عمله، لم يسرع به نسبه) وحين نربط بين الفقرتين الأخيرتين وبين سائر الحديث نلمح اختلافاً فى التناغم والموسيقى الداخلية، فالموسيقى فى الحديث جاءت من الألفاظ والتئامها والتحامها وترابطها ورقتها وعذوبتها. وفى آخر الحديث جاءت الموسيقى من خلال السجع والاتفاق فى القافية بين (عمله، ونسبه) ، ولا شك أن اختلاف المعنى هو الذى تطلب اختلاف الفاصلتين عما قبلهما ويتضح ذلك من خلال النظر فى معانى الحديث. فالحديث من أوله يدعو إلى تنفيس الكرب عن المكروب، والتيسير على المعسر، والستر على المسلم، ومعاونة العباد، وسلوك طريق العلم، والحض على طلبه، وحضور مجالس الذكر، وكلها مما رغب فيه الدين ودعا إليه من من مكارم الأخلاق. أما نهاية الحديث فمختلفة ؛ لأنها تقرر أمراً آخر، وهو أن من قصر فى العمل لم ولن ينفعه النسب، وهو معنى آخر غير المعانى السابقة، وهو ما تطلب اختلاف الفاصلة مع السجع والمطابقة بين " بطأ، ويسرع "

******

عن سعيد بن أبى بردة عن أبيه عن جده عن النبى قال :

" عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ صَدَقَةٌ " . قَالُوا : فَإِنْ لَمْ يَجِدْ ؟ قَالَ : " يَعْمَلُ بِيَدِيهِ فَيَنْفَعُ نَفْسَهُ وَيَتَصَدَّقُ " . قَالُوا : فإن لم يجد ؟ قَالَ : " يُعِينُ ذَا الْحَاجَةِ الْمَلْهُوفَ". قَالُوا :

فإن لم يجد ؟ قَالَ : " يَأْمُرُ بِالْمَعْرُوفِ " . أَوْ قَالَ : " بِالْخَيْرِ " . قَالُوا : أَفَرَأَيْتَ إِنْ لَمْ يَفْعَلْ ؟ قَالَ : " يُمْسِكُ عَنِ الشَّرِّ فَإِنَّهَا لَهُ صَدَقَةٌ ".(١)

هذا الخطاب خطاب رائع شائق، خطاب يدعو للخير بشكل عام، ففيه دعوة عامة لفعل الخير وإسداء الجميل ،دعوة بلغت حد الإلزام، ما أجمل هذا الدين الذى يربى المسلم على حب العمل ،فالإنسان مادام مسلماً فلابد له أن يقدم شيئاً وأن يثمر أينما حل وارتحل فيعم الخير ويسعد الخلق ؛ ولذا جاء التعمم فى قوله صلى الله عليه وسلم على كل مسلم فالكل ينبغي عليه أن يتصدق وهذه العبارة التي قالها رسول الله صلى الله عليه وسلم أثارت لدى المتلقي سؤالاً؛ لأن من المسلمين الغنى والفقير صاحب العمل وفاقده، ولكن صلوات الله وسلامه عليه كان عامداً لإلقاء الخطاب بهذا الشكل الذى يسترعى الانتباه ،ويستثير المتلقي فيكون هذا الحوار الهادئ الذى كان سمته الترقى من حال إلى حال وإشراك المخاطب معه، فبدأ صلى الله عليه وسلم بالتعميم الذى استدعى سؤالهم فمن لم يجد ؟ قال : يعمل بيده فينفع نفسه ويتصدق .

إنها دعوة صريحة لترك الكسل والإقبال على العمل وهذا خطاب مبارك من رسول الله صلى الله عليه وسلم ورد على من قصر الإسلام على العبادة فحسب من صلاة صيام زكاة إلى أخرها من العبادات .

والمسلمون فى هذه الأيام أحوج أهل الأرض إلى تفعيل خطابات الرسول صلى الله عليه وسلم فقد أصبحنا نأكل ما يزرع غيرنا ونلبس ما ينسجه غيرنا، وأصبح الكسل فى العمل وعدم الإخلاص فيه هو السائد الغالب .

هكذا تدعونا سنة المصطفى صلى الله عليه وسلم إلى العمل وارتفاع مستوانا فى آفاق الحياة بشكل عام .

---

(١) صحيح البخارى ١/١٤٠ .

وهذا لن يكون إلا بالعمل؛ لكي نمكن من علوم الأرض، كما مكنا من علوم السماء ولكي يكون عندنا علم شامل بالكون وحسن الانتفاع بما فيه .

والمسلم الذى يعمل لابد أن يتعدى نفعه وخيره إلى غيره، وذلك عن طريق الصدقة، ما أروع هذا الدين الذى يدعو إلى توثيق عرى الأخوة والتعاون والمحبة والسلام، الكل يتعاون مع الكل، الغنى مع الفقير، صاحب العمل مع فاقد العمل ،وبهذا يهيئ الإسلام لبيئة كلها تعاون وسلم.

إن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يكتف مع الصحابة بهذا فحسب ، بل عندما وجه له سؤال آخر فإن لم يجد ؟ لم يقل: ليس عليه شئ وإنما قال صلى الله عليه وسلم (يعين ذا الحاجة الملهوف) .

وهكذا الإسلام يدعو دائماً كل مسلم أن يقدم شيئاً ، والإسلام دائماً يراعي جميع الناس.

وما أجمل وأبلغ صياغة هذه العبارة بهذا الشكل فقد عرفه بالإضافة (ذا الحاجة) لبيان سوء حاله وقلة حيلته، وإذا كان ذا الحاجة فى حاجة للعون والمساعدة فأولى ذو الحاجة الملهوف.

ثم إن فى هذه العبارة إيجازاً بالحذف، والتقدير :إن لم يجد عملاً يعين ذا الحاجة الملهوف.

كذلك الحذف أيضاً فى قوله : " يأمر بالمعروف وليمسك عن الشر فإنها له صدقة " أى إن لم يعن ذا الحاجة الملهوف فليأمر بالمعروف .

ثم إن المضارع فى قوله: " يأمر بالمعروف ويمسك عن الشر "؛ لاستحضار صور الأمر بالمعروف والنهي عن الشر والحث على تجدد هذا العمل وعدم انقطاعه فعلى الإنسان طالما على أنه على قيد الحياة أن يعمل دائماً بالمعروف ويمسك عن الشر وقد أكد الرسول على هذا بلام الأمر فى قوله: (فليعمل) وقوله : (وليمسك) .

ثم جاءت هذه الجملة المؤكدة " فإنها له صدقة "

فعلى الرغم من كون المخاطب خالى الذهن عن مضمون الخبر إلا أن الرسول صلى الله عليه وسلم أكده لكى يمنع عنهم الشك فى مثل هذا الخبر أو التردد فى تصديقه ؛ لأنه ربما يتبادر إلى أذهانهم أن الأمر بالمعروف والإمساك عن الشر لا يصل أبداً إلى مرتبة الصدقة ،فقطع عليهم الرسول صلوات الله وسلامه عليهم مثل هذا التفكير.

بقوله :" فإنها له صدقة " على سبيل المجاز، يقول العينى " فهموا من الصدقة العطية، فلذلك قالوا :فمن لم يجد ؟ فبين لهم أن المراد بالصدقة ما هو أعم من ذلك أن يقدم المسلم شيئاً ولو بإغاثة الملهوف والأمر بالمعروف "[١]

ولارتباط الصدقة بالمسلم والتصاقها به نجد الرسول صلى الله عليه وسلم قد قدم ما حقه التأخير فى قوله :(على كل مسلم صدقة) والأصل أن يقول :صدقة على كل مسلم فقصر صلى الله عليه وسلم الصدقة على كل مسلم .

ولم يتوقف سؤال الصحابة عند هذا الحد، بل استمروا فى السؤال، فإن لم يجد، فكان الرد من رسول الله صلى الله عليه وسلم بالأمر بالمعروف والامساك عن الشر.

إن الحديث من أوله إلى آخره دعوة إلى العمل والحرص عليه، وعدم التهاون فيه مهما كانت حالة الإنسان، ولذا نجده فى آخر الحديث لم يقل: (يأمر بالمعروف وينهي عن الشر إن المجال مجال عمل) ولذا قال : فليعمل وليمسك .

لقد اشتمل هذا الحديث النبوي الشريف على خصائص بلاغية رائعة جاء كل منها فى موقعه فقد استخدم التنكير حيث اقتضى الموقف ذلك ، فعندما قال: (مسلم ، صدقة) ليفيد العموم والشمول ،أى أن كل مسلم غنى أو فقير لابد أن

(١) عمدة القارئ شرح صحيح البخارى ٤٢٧/٦

يقدم صدقة، ولذا جاء لفظ(صدقة) بالنكرة ولم يحددها صلوات الله وسلامه عليه، لتشمل كل أنواع الصدقات كلٌ على حسب مقدرته فالصدقة كما تكون مادية تكون أيضاً معنوية وكما تكون كبيرة تكون صغيرة فأبواب الصدقة كثيرة.

******

عن أَبي ذَرٍّ رضي الله عنه، قَالَ سَأَلْتُ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم: أَيُّ الْعَمَلِ أَفْضَلُ قَالَ: إِيمانٌ بِاللهِ وَجِهادٌ في سَبيلِهِ قُلْتُ: فَأَيُّ الرِّقابِ أَفْضَلُ قَالَ: أَغْلاها ثَمَنًا وَأَنْفَسُها عِنْدَ أَهْلِهَا قُلْتُ: فَإِنْ لَمْ أَفْعَلْ قَالَ: تُعِينُ صَانِعًا أَوْ تَصْنَعُ لأَخْرَقَ قَالَ: فَإِنْ لَمْ أَفْعَلْ قَالَ: تَكُفُّ شَرَّكَ عَنْ النَّاسِ فَإِنَّها صَدَقَةٌ تَصَدَّقُ بِها عَلى نَفْسِكَ.(١)

إن هذا الخطاب النفيس لوصدر للعالم أجمع وتم العمل بما فيه لعاشت الدنيا كلها فى أمان وسلام واطمئنان لأنه يوفر للفرد ضمانات أمنه وسلامته فى حياته حيث الإيمان بالله الذى يحدث سلاماً داخلياً للإنسان وسلاماً خارجياً فى مجتمعه الذى يعيش فيه وحيث الجهاد عندما يكون لله وفى سبيله وتحقيقاً لكلمته دون هوى أو محاباة، وحيث الاهتمام بالإنسان وإعطاء الأكفأ حقه وتكريمه، ثم يأتى بعد ذلك الخطاب النبوي مانحاً للعمل قداسة ترفعه وتجله وتعظمه حيث جاء قوله " تعين صانعاً " أو تضنع لأخرق " إنه التكافل الذى يمنح لكل فرد فى المجتمع حقه فى العيش على سبيل الإلزام لا الصدقة والإحسان .

ثم يختم رسول الله صلى الله عليه وسلم خطابه بتلك العبارة الرائعة التي تستحق أن تكون وثيقة سلام للعالم أجمع .

" تَكُفُّ شَرَّكَ عَنْ النَّاسِ فَإِنَّها صَدَقَةٌ "

إنه مبدأ عظيم من مبادئ الإسلام والتي لو التزم الناس به وفعلوه فى حياتهم لتحقق سلاماً اجتماعياً شاملاً ،إن هذا الحوار الهادئ الهادف بين رسول

(١) صحيح مسلم بشرح النووى ٢٥٥/١

الله صلى الله عليه وسلم وأبي ذر رضى الله عنه لحرِىٌ بأن يدرس للأمة ؛لأنه يعلمنا قادة ورؤساء ومرؤسين رحابة الصدر ،وسعة النفس فى النقاش والحوار فالرسول صلى الله عليه وسلم على الرغم من تعدد الأسئلة وكثرتها أجاب عنها جميعاً بمنتهي الرحابة والسعة والصبر تلك الأمور التي افتقدناها فى خطاباتنا وعوضاً عنها لجأنا إلى الأصوات العالية والتراشق بالسباب ،وعدم الصبر على المتلقي مما ينشأ عن كل ذلك الضغينة والحقد والبغضاء والكره والعداء.

وإذا نظرنا إلى ألفاظ هذا الخطاب النبوي الشريف وجدنا ألفاظه واضحة لا إبهام فيها ولا غموض، لقد وازن رسول الله صلى الله عليه وسلم بين التعريف والتنكير، فنجده قد عرف بعض الألفاظ، لأن المقام يقتضى التعريف كالتعريف بـ (أل) فى (الإيمان ، الجهاد ، الناس) فعرف (الإيمان والجهاد) للعهد بهما والعلم بمفهومهما وفضلهما يعرفه كل مسلم.

وجاء التعريف فى (الناس) للجنس، أى جنس الناس ،وقد عرف صلى الله عليه وسلم الشر بالإضافة ونسبه إلى أبى ذر إشارة إلى أن كل إنسان مسؤول عن شره هو ومطالب بكفه عن الناس.

وقد قابل هذا التعريف تنكير فى بعض الألفاظ مثل: (صانعاً، أخرق ، صدقة) للعموم والشمول فى الأولين، أى ينبغي أن نعين أى إنسان صاحب صنعة، وأما (الصدقة) فنكرها لعظمها أى صدقة عظيمة.

فإذا تأملنا فى أجوبة رسول الله صلى الله عليه وسلم وجدناها كلها تشتمل على الإيجاز.

ففى قوله صلى الله عليه وسلم أنفسها عند أهلها وأكثرها ثمناً " أى أفضل الرقاب عند الله أنفسها ...

وفى قوله : (تعين صانعاً أو تصنع لأخرق) أى إن لم تفعل ذلك فأفضل الأعمال أن تعين صانعاً ...

وفى قوله : (تَكُفُّ شَرَّكَ عَنْ النَّاسِ فَإِنَّها صَدَقَةٌ تَصَدَّقُ بِها عَلى نَفْسِكَ.) أى إن ضعفت عن بعض العمل فإن أفضل الأعمال أن تكف شرك عن الناس فإن فعلت ذلك فهي صدقة على نفسك ...

إن هذا الإيجاز فى كلام المصطفى صلى الله عليه وسلم ينبغي أن يكون هو السائد فى خطاباتنا للآخر عندما نكون فى مقام النصح والإرشاد والتوجيه فالكلام الكثير ينسى بعضه بعضاً، كما أن فى التطويل ثقلاً على المتلقي فيمل سماع النصيحة خاصة إذا كان الكلام مع الخذف والاختصار مفهوم نوالإطالة لا معنى لها ولا عظيم فائدة من ورائها فما يمكن قوله فى دقيقة من الزمن لا يقال فى خمس دقائق منه .

ثم لننظر إلى دقة إجابته صلى الله عليه وسلم عن السؤال الأخير عندما قال له : (أرأيت إن ضعفت عن بعض العمل ؟) فكانت إجابته صلى الله عليه وسلم دقيقة تنم عن عقل واع وشدة تركيز لما يسأل عنه، إنه أجاب بقوله : تكف شرك عن الناس ....

فذكر الشر وترك الخير ، وقد يتبادر إلى الذهن لماذا لم يأت بجانب الخير فى مقابل جانب الشر !! فكان من الممكن أن يقول: تكف شرك عن الناس وتفعل الخير، كما هو شأن باقى أحاديثه صلوات الله وسلامه عليه دائماً ما يذكر الخير بجانب الشر إلا أنه هنا لم يذكر إلا كف الشر فحسب، وهذا هو المناسب لسؤال السائل،؛ لأنه يسأل كيف يكون الحال إن ضعفت عن العمل والخير عمل فلو قال صلى الله عليه وسلم تكف الشر وتعمل الخير فكأنه لم يستوعب سؤال السائل وحاشاه صلى الله عليه وسلم أن يكون غافلاً عما يسمع صلوات ربى وسلامه عليه .

****

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ، قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم ، فَقَالَ : مُرْنِي بِأَمْرٍ ، قَالَ : لاَ تَغْضَبْ ، قَالَ : فَمَرَّ ، أَوْ فَذَهَبَ ، ثُمَّ رَجَعَ ، قَالَ : مُرْنِي بِأَمْرٍ ، قَالَ : لاَ تَغْضَبْ ، قَالَ : فَرَدَّدَ مِرَارًا ، كُلَّ ذَلِكَ يَرْجِعُ فَيَقُولُ : لاَ تَغْضَبْ.

من الأمور التي تضعف الحوار وتخرجه إلى الخصومة واللدد اللجوء إلى الغضب، ولقد نهينا عن الغضب كما أكده النبي بتكرار النهي عنه كما في هذا الحديث ؛ ذلك أن الغضب مخرج للإنسان عن شعوره وتعقّله، فإذا حدث شيء من ذلك أفسد الحوار، وأحدث اللدد والخصومة، وربما استتبع العداوة، كما هو مشاهد في الحياة فكثير من الخلاف في وجهات النظر يذهب بالمودة والمحبة،

فالغضب من أخطر آفات الحوار؛ لأنه يخرج الإنسان عن حدود السلوك القويم، يقول الدكتور أحمد كمال أبو المجد:" إن الحوار لا يكاد يبدأ جدالاً بالتي هي أحسن ... حتى تتسلل إليه الحدة والشدة وتستولي على بعض أطرافه روح الضيق بالمخالفين والمسارعة إلى اتهامهم في أفكارهم ونياتهم، وأخذهم بالشبهة وسوء الظن، واستثارتهم باللفظ الجارح والعبارة القاسية، ويترك بعضهم ساحة الحوار إيثاراً للسلامة ،ويختار بعضهم أن يدفع السيئة فيرد على الصيحة بأعلى منها، يتلقى التهمة فيوجه مثلها أو أشد ... ثم لا تلبث القضايا التي بدأ الحوار بقصد خدمتها أن تضيع وسط الاتهامات المتبادلة ".[١]

وهذا حديث نبوي شريف مهم في باب إصلاح أخلاق الناس وتزكية نفوسهم، وهو جليل القدر مع صغره. وفيه مسائل:

(١) حوار لا مواجهة د/ أحمد كمال أبو المجد: ٢٤، دار الشروق، القاهرة ١٩٨٨م.

الأولى: مشروعية طلب الوصية من العالم والرجل الفاضل سواء في أمر عام أو خاص ، وقد كان السلف يكثرون من ذلك، فهذا الرجل حرص على طلب الوصية من النبي صلى الله عليه وسلم فأوصاه النبي بوصية جامعة وربما أدرك النبي صلى الله عليه وسلم حاجته إلى الحلم وترك الغضب، فينبغي على المؤمن أن يحرص على ذلك فربما سمع كلمة نافعة أصلحت حاله وغيرت مجرى حياته وفتحت له باباً من الخير وأغلقت عليه باباً من الشر فقد يفتح الله على بعض عباده بالحكمة ويقذف في قلوبهم نورا فيبصرون بعض خلقه من حيث لا يظنون.

الثانية: الغضب جماع الشر كله. قال جعفر بن محمد: (الغضب مفتاح كل شر). وقيل لابن المبارك: اجمع لنا حسن الخلق فقال: (ترك الغضب). وهو من أقبح الأخلاق السيئة، لأنه يخرج المرء عن طبيعته الإنسانية إلى البهيمية ويحمله على ارتكاب تصرفات سيئة من السب واللعن والاعتداء ،بل ربما والعياذ بالله تلفظ بألفاظ توجب الردة، وللغضب آثار سيئة على الفرد والمجتمع، فكم فرق بين الأحباب وأفسد بين الخلان وشتت أسراً كانت مطمئنة.

الثالثة: قوله صلى الله عليه وسلم: (لا تغضب) يشمل معنيين:

الأول: أن يتجنب المرء الوقوع في الغضب ابتداء أو يقلل منه، وذلك بأن يعمل بالأسباب التي توجب حسن الخلق من الحلم والكرم وغير ذلك ،فإن المرء إذا تحلى بذلك لم يحصل منه الغضب عند وجود أسبابه.

الثاني: أن لا يعمل بمقتضى الغضب إذا وقع فيه بل يجاهد نفسه ، فإن الغضب إذا ملك الإنسان كان الآمر الناهي له.

فى هذا الفعل المنهي خير الدنيا والآخرة ، لأن الغضب عواقبه وخيمة ، فهو يؤدى إلى التقاطع والتنازع والتشاحن والتباغض يقول الدكتور محمد عبد الله دراز "كلنا نعرف أن ظاهرة الغضب ظاهرة مزدوجة: (فسيولوجية وسيكولوجية) ، أعنى أنها عضوية نفسية فى وقت واحد ، ألسنا نرى الانفعال النفسانى فيها

تصحبه ثورة دموية ، تغلى منها مراجل الصدر ، وترتفع بها حرارة الجسم ، وقد تتقلص منها عضلات الوجه فى أعراض تشبهها ، ثم يتبع ذلك لواحق أخرى ، كالجهر بالقول ، والبطش باليد إلى غير ذلك ".(١)

إن فى تعبير الرسول صلى الله عليه وسلم بالفعل المضارع المنهي دلالة على أنه ينبغي أن يكون هذا هو منهج حياتنا المتجدد غير المنقطع وهو عدم الغضب مطلقاً وينبغي على الإنسان أن يدرب نفسه على هذا الأمر .

وحينئذ سيسود الأمن ويحل السلم فى النفس أولاً، وفى الأسرة ثانياً ومن ثم فى المجتمع بأكمله .

****

عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : «مَا تَعُدُّونَ الرَّقُوبَ فِيكُمْ؟» قَالَ قُلْنَا: الَّذِي لَا يُولَدُ لَهُ، قَالَ: «لَيْسَ ذَاكَ بِالرَّقُوبِ وَلَكِنَّهُ الرَّجُلُ الَّذِي لَمْ يُقَدِّمْ مِنْ وَلَدِهِ شَيْئًا» قَالَ: «فَمَا تَعُدُّونَ الصُّرَعَةَ فِيكُمْ؟» قَالَ قُلْنَا: الَّذِي لَا يَصْرَعُهُ الرِّجَالُ، قَالَ: «لَيْسَ بِذَلِكَ، وَلَكِنَّهُ الَّذِي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الْغَضَبِ» (٢)

فى هذا الحديث النبوي الشريف تغيير لمفاهيم رسخت فى أذهان المتلقين ، ويعلمنا صلى الله عليه وسلم فى هذا الخطاب النبوي الشريف طريقة رائعة من طرق الإقناع والتأثير فى المتلقي وجذب انتباهه عند تغيير معلومة ثابتة عنده راسخة فتوجه بالسؤال صلى الله عليه وسلم لهم وهو يعلم أن إجابتهم ستكون مخالفة لما يريد إيصاله لهم فسألهم ماتعدون الرقوب فيكم ؟ فما تعدون الصرعة فيكم ؟

---

(١) دراسات إسلامية فى العلاقات الإجتماعية والدولية د/ محمد عبد الله دراز ص ٤٥ ط دار القلم.

(٢) صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب فضل من يملك نفسه عند الغضب وبأي شيء يذهب الغضب.

بهذه الأسئلة السهلة الألفاظ العميقة المعنى بدأ الرسول صلى الله عليه وسلم حواره الهادئ مع صحابته رضوان الله عليهم تميهداً لمعلومة جديدة أراد إخبارهم بها، وقد جاءت هذه الأسئلة بالفعل المضارع لأنها صورة حاضرة فى الأذهان لا تنفك عنهم أبداً ،ثم مفهوم هذين المصطلحين وليس الاهتمام منصباً على فاعلهما لكى يسأل عنه بل الذى يهمه هو هذين المفهومين، وهو صلى الله عليه وسلم يعلم أنهم سيجيبون بهذه الإجابة فالسؤال هنا خرج عن معناه الحقيقى فهو ليس لإفادة الخبر ، ولكن للازم فائدة الخبر التي تتمثل فى إدخال مفهوم ومعنى جديد إنهم أجابوا لكن كان رده صلى الله عليه وسلم ليس ذلك بالرقوب ، ولكنه الرجل الذى لم يقدم من ولده شيئاً)

أراد الرسول صلى الله عليه وسلم أن يعلم الآباء شيئاً مهماً ،وهو أن الحرمان الحقيقى للولد هو من كان عنده الولد ثم فقده ؛لأنه قد ذاق اللذة ،لذة الفرح بالولد والتعلق به، فألمُ فقد الولد أشد من ألم الحرمان منه ابتداءً .

لقد جاء التصوير بالوصف فى هذا الخطاب النبوي الشريف أبلغ من التشبيه أو الاستعارة أو الكناية لأنه قد نقل لنا مشهد الإنسان الشديد القوى وجعله واقعاً ملموساً نراه بأعيننا حيث وصفه وصفاً نابعاً من بصيرة ناقدة وحسن إدراك وصفاً تعجز ريشة الفنان أن تأتى بأجمل منه وأبدع .

وفيه تعريف جديد للصرعة مخالف لما ألف الناس وعرفوا .. وفيه يقرر صلى الله عليه وسلم أن الإنسان أنما يكون إنساناً بإرادته لا بعضلاته فليس الشديد هو الذى يصرع الناس بقوته ، ولكن الرجل الصرعة الشديد هو الذى يملك السيطرة على أعصابه ، ويستطيع أن يتصرف التصرف الموزون اللبق حالة الغضب والانفعال وبذلك يكون الإنسان إنساناً .

******

عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، كَانَ يَقُولُ : " اتَّقُوا الظُّلْمَ ، فَإِنَّ الظُّلْمَ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَاتَّقُوا الشُّحَّ ، فَإِنَّ الشُّحَّ أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ ، حَمَلَهُمْ عَلَى أَنْ يَسْفِكُوا دِمَاءَهُمْ ، وَيَسْتَحِلُّوا مَحَارِمَهُمْ " .(١)

ما أعظم الإسلام دين الحق والعدل ، دين الإنصاف والمساواة ، دين يمقت الظلم ، ويكره العدوان

إن الرسول صلى الله عليه وسلم يبين في هذا الحديث الشريف عاقبة الظلم ومصير الظالمين، وفيه تحذير من الظلم ، وتحذير آخر من مرض اجتماعي خطير ، وهو البخل عن طريق هاتين الجملتين الإنشائيتين: (اتَّقُوا الظُّلْمَ ،وَاتَّقُوا الشُّحَّ) ، وفيه تبشيع للظلم عن طريق الجناس الناقص ،حيث صور (الظلم بالظلمات) ذلك السواد الذي ركب بعضه فوق بعض، وهو إذ ينفر من الشح يجعله سبباً في الهلاك عن طريق ذلك المجاز العقلي في قوله (فَإِنَّ الشُّحَّ أَهْلَكَ) حيث نسب الإهلاك للشح بينما هو سبب فيه، ثم يستمر في بيان قبح الشح وسوء عاقبته عن طريق حذف المضاف في قوله (يَسْفِكُوا دِمَاءَهُمْ) فالمراد :دماء إخوانهم أو دماء بعضهم ، وكأن في قتله للآخرين قتل للنفس ، واستباحة لحرمتها ، والإنسان لا يقبل لنفسه هذا ، وكذلك لا ينبغي أن يقبله للآخرين.

إن الرسول صلى الله عليه وسلم بهذا الخطاب النبوي الشريف يضمن للمجتمع التكافل والتضامن والتعاون وحب الخير للغير

****

عن أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله " ﷺ " انْصُرْ أَخَاكَ ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا فَقَالَ رَجُلٌ: يا رَسُولَ اللَّهِ أَنْصُرُهُ إِذَا كَانَ مَظْلُومًا ، أَفَرَأَيْتَ إِذَا كَانَ ظَالِمًا كَيْفَ أَنْصُرُهُ ؟ قَالَ : تَحْجِزُهُ أَوْ تَمْنَعُهُ مِنْ الظُّلْمِ فَإِنَّ ذَلِكَ نَصْرُهُ " .(٢)

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووي ، كتاب البر والصلة والآداب ، باب تحريم الظلم.
(٢) الترمذي ج٤، صـ١٠٦.

في هذا النص البلاغة في أساليبها العاليـــة ، " انصـــر أخـــاك ظالمـــاً أو مظلوماً" ، إن الخطاب هنا جاء على خلاف مقتضى الظاهر ؛"لأن حق الضـــمير أن يكون لمعين ، فكونه لغير معين خلاف مقتضى الظاهر"[١] فالتعبير بضمير الخطاب المضمر في قوله(انصر) لم يرد به مخاطباً معيناً، وإنما أراد أن كل من يتأتى منه الخطاب ،ينبغي أن يقوم بهذه المهمة العظيمة التي فيها غاية العدل مـــن نصـــر المظلوم ، والأخذ بيد الإنسان الظالم حتى لا يقع في انتهاك حرمات الغير

إن الظلم والعدوان يؤديان إلى انهيار المجتمع مالم تكن هناك قوة تدفعه أو أخلاق تمنعه، وهذا الحديث النبوي الشريف خطوة كبيرة جداً فى دعم الســـلم وتثبيته فى النفس؛ إذ يخلق هذا الخطاب النبوي فى داخل كل نفس قوة الحب للأخ وربط علاقة قوية بين البشر دعائمها النصرة ودفع الظلم والمحافظة على رابـــط الأخوة، فجعل الخطاب النبوي الظالم أخاً والمظلوم أخاً لتعميق الصلة وقوة التلاحم والترابط بين المسلمين وإثارة للمروءة ودعا إلى ضرورة منع الأخ الظـــالم مـــن ظلمه وليس المنع فقط هو المطلوب بل تعدى الأمر أكثر من ذلك بكثير تعدى إلى النصر ولا فرق بين أن يكون ظالماً أو مظلوماً ففى الحالتين يتوجب عليه نصـــر أخيه لكن طريقة النصر هي التي تختلف ففى حالة كونه مظلوماً فالطريق ســـهل واضح أما فى حالة كونه ظالماً فكيف يكون النصر، ولهذا كان الاستفهام من قبل المتلقي استفهام أفاد التعجب والدهشة والاستغراب ؛ لأن النصر فى حالة كونـــه ظالماً لا يفهمه العقل ولا يستوعبه فيجئ الرد والجواب النبوي الشـــريف شـــافياً واضحاً مقرراً ومؤكداً على حالة السلم التي ينبغي أن يعيشها المجتمع ، والتـــي ينبغي أن تكون شعاراً للحياة ومطلباً أساسياً لا ينبغي التخلي عنه ، فقـــد وضـــح

(١) بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة، تأليف الشيخ عبـــد المتعـــال الصـــعيدي ، جـــ١، صـــ٨٣ مكتبة الآداب١٤١٧ه –١٩٩٧ م .

صلوات الله وسلامه عليه كيفية نصره الأخ الظالم حيث قال تحجره أو تمنعه من الظلم ..

إنها عبارة واضحة سهلة، مفهومة فيها انتقاء للألفاظ بدقة متناهية ؛ إذ عبَّر بـ (تحجزه أو تمنعه)، لما فيهما من قوة وشدة فى الأخذ على يد الظالم وعدم التهاون فى هذا الأمر ، ثم لما كان ذلك الخبر فيه غرابة وهو نصرة الظالم جاء التأكيد بإن فى قوله : فإن ذلك نصره ، لكى يتلقى المتلقي الخبر بالإذعان والتسليم، فلا مجال للتردد أو الانكار .

إن الحديث كله مقطوعة موسيقية متناسقة فيه موسيقى عالية النبرة تُنَفِّر من الظلم وتضرب على يد الظالم فقد تكرر مادة (ظ ل م) بالمصدرية المباشرية ليكون الأسلوب الأساسى فى التعامل والسلوك الطبيعى هو التنفير من الظلم ومحاولة منعه ،والأخذ على يد الظالم، وكفه عن العدوان ، ثم إن هذه الموسيقى عالية النبرة تمثلت فى ذلك النصر وما يتبعه من أصوات عالية تعبيراً عن الفرح والسرور .

لقد حوى الخطاب النبوي الشريف أسلوباً خطابياً رائعاً ،تجلت فيه مجموعة من الخصائص البلاغية التي سيقت لخدمة الغرض من هذا الخطاب ، ابتداء من انتقاء الألفاظ ،مثل قوله " انصر " دون (أعن أو أزر) لما لهذا اللفظ من خصوصية وضحها أبوهلال العسكرى بقوله : " النصرة لا تكون إلا على المنازع المغالب ، والخصم المناوئ المشاغب والإعانة تكون على ذلك وعلى غيره، تقول : أعانه على من غالبه ونازعه ونصره عليه ، وأعانه على فقره ، إذا أعطاه ما يعينه ، وأعانه على الأحمال ولا يقال : نصره على ذلك فـ (الإعانة) عامة ، و(النصرة) خاصة "[1] .

(١) الفروق اللغوية لأبي الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري ، تعليق : محمد باسل عيون السود صـ٢١٤، دار الكتب العلمية ،بيروت– لبنان،ط٣،١٤٢٦هـ–٢٠٠٥م

وفى تقديمه للظالم على المظلوم مع أن الأصل أن يقدم المظلوم على الظالم لأن نصر المظلوم هو المعهود المعروف ولكنه عدل عن ذلك إلى تقديم الظالم للتأكيد على ضرورة نصرة الأخ ولو كان فى أسوأ حالاته، وهي حالة الظالم فلا ينبغي أبداً التخلى عن الأخ؛ بل الواجب الوقوف معه وإسداء المعروف إليه بكفه عن الظلم.

أمجتمع مكون من هؤلاء الأشخاص، الأخ يتلائم مع أخيه ويقف معه حتى فى أحط حالاته ، أترى مثل هذا المجتمع نجد فيه العنف والإرهاب أم السلم والأمان!!!.

ثم لننظر إلى استخدام الرسول صلى الله عليه وسلم لاسم الإشارة (ذلك) الذى هو للبعيد ولم يقل (فإن هذا نصره) وكأنه أراد أن يقول صلوات الله وسلامه عليه إن هذا الحجز أو المنع سيسرى فى الأمة بأكملها ويتعدى منه إلى المجتمع كله، أو كأنه أراد أن يقول: إن هذا الأمر أعنى النصر بالحجز أو المنع بعيد فى الأفهام فاستخدم له ما يناسبه من اسم الإشارة البعيد، كما أن هذا الأمر شاق بعيد فليس من السهولة منع الإنسان من الظلم .

****

عن أَبي مُوسَى الْأَشْعَرِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ أَعْرَابِيٌّ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الرَّجُلُ يُقَاتِلُ لِلْمَغْنَمِ وَالرَّجُلُ يُقَاتِلُ لِيُذْكَرَ وَيُقَاتِلُ لِيُرَى مَكَانُهُ مَنْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَقَالَ مَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ . (١)

هذا الحديث النبوي الشريف يوحد الأمة، ويجمعها تحت راية واحدة ، وطريق واحد ، وهو إعلاء كلمة الله.

(١) صحيح البخاري كتاب الجهاد والسير

إنه دين الوحدة الكبرى الذى يجمع ولا يفرق، وهـذا الخطـاب النبـوي الشريف خير دليل على هذا، فلم يعترف بالذي يقاتل لينال غنائم الحرب، ولا للذكر الحسن والشهرة، ولا طلباً للمكانة العالية والمنزلة الرفيعة، إنما تحت راية إعلاء كلمة الله، وترك ماعدا ذلك من تعدد الأهواء وتباين النيات واختلاف الأمزجة.

الكل لابد أن يتجه وجهة واحدة لا تصادم فيها ولا صراع ،وإنمـا الكـل يسلك طريقاً واحداً لأن غايته واحدة ووجهته واحدة.

إن فى إجابة النبى صلى الله عليه وسلم إيجازاً شديداً فى اللفظ ، ثرياً فى المعنى، يقول العسقلانى " فى إجابة النبى صلى الله عليه وسلم بما ذكـره غايـة البلاغة والإيجاز، وهو من جوامع كلمه صلى الله عليه وسلم لأنه لو أجابه بـأن جميع ما ذكره ليس فى سبيل الله احتمل أن يكون ما عدا ذلك كله فى سـبيل الله وليس كذلك، فعدل إلى لفظ جامع و عدل به عن الجواب عن ماهية القتال ، إلـى حال المقاتل فتضمن الجواب وزيادة "(١).

وفي ذكر الرسول صلى الله عليه وسلم للمسند إليه فى قوله: (هي العليا) فيه قصر صفة العلو على الكلمة أى هي العليا لا غيرها.

وقد جاء جواب رسول الله صلى الله عليه وسلم مخالفاً لما ذكره السائل، فلم يَخْتر أىَّ اختيار مما أعطاه له السائل وإنما أقر هذه الحقيقة، حقيقة الوحـدة الكبرى وهي التي تكون في سبيل الله.

*****

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَـالَ : " ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ ، وَجَدَ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ، أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّـا

(١) فتح البارى بشرح صحيح البخارى لابن حجر العسقلاني ٦/٣٦

سِوَاهُمَا ، وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ ، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ" (١).

هذا الحديث النبوي الشريف يقرر حقيقة مهمة وخطوة عظيمة من خطوات السلم ، وهو اجتماع الأمة على كلمة واحدة ، ومحبة واحدة هي محبة الله ورسوله التي هي أصل الإيمان .

وإذا كانت الأمة مجتمعة على هدف واحد وحب واحد فلن تتفرق ولن تتصارع ولن تتصادم بل تلتئم وتتوافق وتتكامل .

لقد استغل رسول الله صلى الله عليه وسلم خطابه بأسلوب فيه من الغموض المثير ما يجعل المتلقي يتعجل التفاصيل والإيضاح. لقد أثار رسول صلى الله عليه وسلم انتباههم وحفز نشاطهم حتى إذا ألقى الخبر عليهم تلقته نفوسهم بالقبول والاستعداد للتنفيذ .

كما استخدم رسول الله صلى الله عليه وسلم أسلوب الإطناب الذى يتناسب مع هذا الخبر العام فبدأ حديثه بالإبهام ثلاث من كن فيه " ثم وضحه بعد ذلك ، ومن فوائد هذا الأسلوب: أنه يرينا المعنى فى صورتين مختلفتين فيتمكن فى النفس فضل تمكن " فإن المعنى إذا ألقى على سبيل الإجمال والإبهام تشوقت نفس السامع إلى معرفته على سبيل التفصيل والإيضاح ، فتتوجه إلى مايرد بعد ذلك ، فإذا ألقى كذلك تمكن فيه فضل تمكن(٢) .

لقد ابتدأ صلى الله عليه وسلم حديثه بـ (التوشيح) أى بذكر العدد، ثم بعد ذلك أتبعه بذكر التفاصيل ، وفى ذكره لهذه التفاصيل جاءت الجملة الموضحة (أن

(١) صحيح البخاري، كتاب الإيمان ، باب حلاوة الإيمان.

(٢) الإيضاح للخطيب القزويني ص ٢٢٨ تحقيق د/ عبد القادر حسين ط مكتبة الآداب

يكون) مفصولة عما قبلها لكمال الاتصال ؛لأنها بمنزلة عطف البيان من متبوعه فى إفادة الإيضاح والتفصيل الذي أبهم فى الجملة الأولى .

وعلى الرغم من هذا الإطناب إلا أن الإيجاز كان حاضراً أيضاً ، ففى قوله: (ثلاث) إيجاز بحذف المضاف إليه والتقدير: ثلاث خصال فحذف المضاف إليه وعوض عنه التنوين ولذا سوغ الابتداء بالنكرة.

وفى هذا الحذف تشويق وإثارة للمخاطب ؛ لأن كلمة(ثلاث) فيها إبهام ، فلم يعرف المخاطب كنه الثلاث أهي مادية أم معنوية؟ ثم لفظ (حلاوة) الذى يشعر بالفرح والبهجة ،إنه تصوير بيانى رائع لأثر الإيمان فى القلوب فالأصل فى (الحلاوة) أن تكون فى المطعومات أى فيما هو محسوس ،إلا أنه استخدمها فيما هو معنوى ؛حيث شبه الإيمان بالعسل بجامع الحلاوة والتلذذ وهذا تعبير رائع عن الحالة الإيمانية والمتعة الروحية التي يشعر بها من ذكرهم الرسول صلى الله عليه وسلم فى هذا الحديث الشريف . وقد قال العلماء : معنى (حلاوة الإيمان) استلذاذ الطاعات وتحمل المشقات قي رضى الله عز وجل ، ورسوله صلى الله عليه وسلم ، وإيثار ذلك على عرض الدنيا، ومحبة العبد ربه سبحانه وتعالى بفعل طاعته وترك مخالفته ،كذلك محبة رسوله صلى الله عليه وسلم.

ثم بدأ رسول الله صلى الله عليه وسلم فى إيضاح ما أبهمه أولاً؛ لأن نفس المتلقي مثارة تنتظر إخماد شوقها .

وقد أصبحت الآن على أتم استعداد لتلقى الخبر فقال صلى الله عليه وسلم : (أن يكون الله ورسوله أحب اليه مما سواهما)

لقد استخدم الرسول صلى الله عليه وسلم المصدر المؤول وفضّله عن المصدر الصريح ؛ لأنه يريد أن يكون حبهم لله ولرسوله متجدداً حالاً بعد حال، ثم إنه فى تعبيره بأفعل التفضيل فى قوله :(أحب) أفاد أن حب الله ورسوله موجود

ثابت فى قلب المؤمن لكن المطلوب هو تقديم هذه المحبة على كل ما سواها، فإذا تعارضت محبة الله ورسوله مع أى محبة أخرى فُضِّلت عليها .

وهذا أمر رائع لو فهمناه وعقلناه لما تناحر الناس ولما اختلفوا ولما سيطر الهوى الشخصي والميل القلبى على أحد ؛ بل لتوحدت الوجهة ولمات الصراع ودفن إلى الأبد .

فمعظم خلافاتنا اليوم ؛ لأننا لم نقدم حب الله ورسوله على كل حب وهوى، فمنا من يقدم حب السلطة، ومنا من يقدم حب الشهرة ، ومنا من يقدم حب المال، وهكذا ... قدمنا حباً آخر على حب الله ورسوله فكان ما كان من الخلاف والصراع والنزاع والشقاق.

ولو كانت محبتنا لله ورسوله مقدمة على أى محبة لما تنازعنا وتصارعنا؛ بل لتسالمنا وتصافحنا .

إننا إذا أردنا مجتمعاً متمتعاً بالسلم فعلينا أن نجعل محبة الله ورسوله مقدمة على محبة النفس والأهل والولد والمال والجاه وكل مغريات الحياة فخطابه صلى الله عليه وسلم يشمل كل هذا إذا قال: (مما سواهما) فشمل العاقل وغير العاقل؛ إذ لو أراد الأشخاص فقط لقال : ممن سواهما

إن محبة الرسول صلى الله عليه وسلم لا تنفصل عن محبة الله عز وجل ؛ ولذا جاءت الواو جامعة للمحبتين فى منزلة واحدة . وأكد هذه المنزلة تثنية الضمير فى قوله :(سواهما) قال القاضي عياض : " وأما تثنية الضمير ههنا فللإيمان على أن المعتبر هو المجموع المركب من المحبتين لا كل واحدة ، فإنها وحدها ضائعة لاغية "[١] .

(١) عمدة القاري ج١ ص ٢٢٨

إن هناك محبة أخرى نابعة من محبة الله ورسوله يترتب عليها ايضاً الشعور بحلاوة الايمان عبر عنها الرسول صلى الله عليه وسلم بقوله : (وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله) لقد جاءت هذه الجملة موصولة بما قبلها وما بعدها وذلك لوجود الجهة الجامعة بينهم وقصد التشريك فى الحكم الاعراب لقد عبر صلى الله عليه وسلم أيضاً بالمصدر المؤول ليدل على أن هذه المحبة لابد وان تكون متجددة ثم إن هذه المحبة منقطعة عن أى غرض دنيوي ؛ ولذا كان أسلوب القصر فى قوله (لا يحبه إلا لله) فلا حظّ لمحبةٍ من أجل شئ آخر ، إنها محبة خالصة لله ،وهذا شرط أكيد فى ذوق حلاوة الإيمان .

ثم ينتقل بعد قضية المحبة إلى قضية مضادة لها وهي الكره ، فيدعونا إلى كره الرجوع للكفر بعد أن من الله علينا بالإيمان، وهو إذ يُكَرِّهنا فيه يشوهه لنا ويشعرنا بفظاعته عن طريق الاستعارة فى حرف الجر " فى " فقد صور الكفر بالظرف الذى يحتوى الإنسان ويغطيه بالظلام .

فكما يتلبس الظرف بالمظروف يتلبس الكفر بالنسان بجامع التمكن فى كل .

إن هذا التصوير ينفر المؤمن من العودة للكفر ويكرهه فيه ،كما يزداد ذلك الكره بهذا التصوير الأخير عن طريق التشبيه التمثيلى فى قوله صلى الله عليه وسلم : (كما يكره أن يقذف فى النار)

إنها صورة تقبح وتكره الرجوع إلى الكفر ؛ لأن فى حب الرجوع إليه كمن يحب أن يقذف في النار، ولا شك أن العاقل لا يقبل هذا المشهد ، فضلاً عن الوقوع فيه.

لقد حذف المسند إليه فى قوله (يقذف) فجاء الفعل مبنياً للمجهول ؛ لعدم تعلق الغرض بذكره وتوقع الخطر مع الجهل بمصدره أشد وقعاً فى النفس وهذا ما أراد الرسول صلى الله عليه وسلم تصويره ، ثم لما كان العود للكفر يكون بمشيئة الإنسان وإرادته بنى الفعل للمعلوم فى قوله (يعود)

إن الإلمام بصيغ العربية وحسن توظيفها من الأمور الهامة التي ينبغـــي تعلمها في كيفية صناعة الخطاب .

******

روي عن أبي بكر رضي الله عنه قال: خطبنا النبي صلى الله عليه وسلم يوم النحر قال: أَتَدْرُونَ أَيَّ يَوْمٍ هَذَا ؟ فَسَكَتْنَا حَتَّى ظَنَنَا أَنَّهُ سَيُسَمِّيهِ سِوَى اسْمِهِ ، فَقَالَ : أَلَيْسَ يَوْمَ النَّحْرِ ، فَقُلْنَا : بَلَى ، ثُمَّ قَالَ : أَتَدْرُونَ أَيَّ شَهْرٍ هَذَا ؟ ، فَسَكَتْنَا ، حَتَّى ظَنَنَا أَنَّهُ سَيُسَمِّيهِ سِوَى اسْمِهِ ، فَقَالَ : أَلَيْسَ ذَا الْحِجَّةِ ؟ فَقُلْنَا : بَلَى ، قَالَ : أَتَدْرُونَ أَيَّ بَلَدٍ هَذَا ؟ ، فَسَكَتْنَا ، حَتَّى ظَنَنَا أَنَّهُ سَيُسَمِّيهِ سِوَى اسْمِهِ ، فَقَالَ : أَلَيْسَ الْبَلَدَ الْحَرَامَ ؟ ، قُلْنَا بَلَى ، قَالَ : فَإِنَّ أَمْوَالَكُمْ ، وَأَعْرَاضَكُمْ ، وَدِمَاءَكُمْ حَرَامٌ عَلَيْكُمْ ، مِثْلَ يَوْمِكُمْ هَذَا ، وَمِثْلَ شَهْرِكُمْ هَذَا ، وَمِثْلَ بَلَدِكُمْ هَذَا ، أَلَا لِيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ مَرَّتَيْنِ ، فَرُبَّ مُبَلَّغٍ أَوْعَى مِنْ مُبَلِّغٍ " ..(١)

يسيطر أسلوب الاستفهام على هذا الخطاب النبوي الشريف ،وهو أسلوب تربوى توجهي كان ينتهجه رسول الله صلى الله عليه وسلم فى تعليم الأمة أمور دينها وترسيخ الأخلاق الحميدة والعقيدة السليمة فى نفوس صحابته، والاستفهام هنا لطلب إقرار المخاطب بما يريد المتكلم، فقد عمد النبي صلى الله عليه وســلم إلى تقرير هذا المعنى بطريق الاستفهام لما فيه من إثارة ولما فيه مــن انتــزاع إقرارهم بألسنتهم ، وهذا أمكن من التقرير الخبري أبلغ في التوكيد.

إن أسلوب الاستفهام له تأثير بالغ فى النفوس ، فهو يشوق المتلقي إلـــى الإجابة الصحيحة ،كما أن فيه إشراك له فى التفكير وإدارة حوار مع السائل ،إنه حوار هادئ لا صراع فيه ولا عصبية ، بل فكر وروية .

(١) صحيح البخاري ١/٥١٣

حوار ألفاظه سهلة واضحة لا غموض فيها ولا غرابة ، ومعانيه قيم سامية ومبادئ عالية تهدف للسلم وتقر الأمن وتثبت الطمأنينة فى النفوس ، حوار تراكيبه قوية جزلة .

حوار يعطى لليوم حرمته ، وللشهر حرمته ، وللبلد حرمتها ، حيث أعطى التنكير (لليوم والشهر والبلد) حرمة التعظيم وزادها تعظيماً بتنكير (حرام) ثم أعطى هذه الحرمة صفة العموم والتكثير بتنكيره (مُبَلَّغٍ، مُبَلِّغٍ) فلا يشترط فيمن سمع أو بلغ إلا السمع والبلاغ ، لا شرط لجنس أو لون أو حسب أو لقب ، السماع للكل والبلاغ للكل ؛ لعظم هذا الأمر وخطورته .

وإذا كان الخطاب النبوي الشريف استخدم التنكير للتعظيم والتكثير والعموم ، فليس بغائب عنه استخدام التعريف ؛ بل جاء موازياً للتنكير ؛ لخدمة نفس الغرض الذى هو حرمة الدماء والأموال ...

فنراه فى (دمائكم ، أموالكم ، شهركم ، بلدكم ، ربكم ، الشاهد ، الغائب) ففى الألفاظ الأولى جاء التعريف بالاضافة لإشعارهم بأن ذلك الأمن والسلم متعلق بهم لا بأحد غيرهم ؛ لتكون المسارعة لحقن الدماء وحفظ الأموال والأعراض وتعظيم الشهر والبلد ،ولتزداد تلك المسارعة وهذا التعظيم جاء الخبر مؤكداً (بإن) مع أنهم فى موقف خالى الذهن لكنه نزلهم منزلة السائل المتردد ، وذلك من أجل هذا التعظيم ومبالغة منه صلى الله عليه وسلم فى حرمة الدماء والأموال ، ومن أجل تلك الحرمة لم يجعل لها وقت تنتهي فيه، وإنما جعلها ممدودة إلى يوم لقاء الله عز وجل فما دمنا على قيد الحياة، وما دامت هناك دينا نعيشها فلا قتل ولا سفك ولا اغتصاب لمال ؛ بل سلام وأمان يعيش فيه المجتمع . فالحرمة دائمة مستمرة موصولة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

ثم يستمر صلى الله عليه وسلم فى توجيه أمته بذلك الأسلوب الحانى الرقيق، أسلوب النهي غير الحقيقى وإنما نهي خرج إلى النصح والإرشاد فى قوله " فلا ترجعوا بعدى كفاراً "

وأسلوب الأمر غير الحقيقى فى قوله :" اللهم فاشهد " فقد خرج للدعاء وإبراء الذمة بأنه قد أدى ما عليه وقد شهدوا له بذلك وفى طلب الشهادة من الله " بعث للرهبة فى النفوس التي يطوف بها الاثم ، وتمكيناً للطمأنينة فى النفوس المؤمنة المفعمة بزاد التقوى وبرد اليقين "[١] .

إن الرسول صلى الله عليه وسلم استطاع أن يوظف الأساليب الإنشائية لخدمة القضية التي يتحدث عنها فكما استخدم الأمر والنهي نجده أيضاً قد استخدم الاستفهام غير الحقيقى فى قوله: " ألا هل بلغت " ؛ليضمن إقرارهم بأنهم قد علموا ما قاله فلا يدع مجالاً لمنكر أن يقول : ما بلغ رسول الله وما قال بذلك ، وهو أسلوب رائع ينبغي على كل قائد وكل مسؤول أن يستخدمه بعد التوجيه والنصح والإرشاد للرعية ؛ ليضمن سماعهم لذلك النصح وإدراكهم لذلك الإرشاد ،ولا يترك مجالاً لمدَّعٍ أن يدعي أنه ما قال ،وما وجه، وما أرشد .

فالاستفهام هنا لتقريرهم بأنه قد بلغ، وهم قد شهدوا ، وقد سبق هذا التقرير تنبيههم أولاً بقوله " ألا " حتى يقروا وهم فى حالة يقظه تامة وبصيرة واعية .

يقول العقاد : هذه هي السمة اللازمة التي رددها النبى فى أطول خطبة أخيرة وهي لازمة عظيمة فى مقامها لأنها لخصت حياة كاملة فى ألفاظ معدودات ،فما حياة النبى صلى الله عليه وسلم كلها بعملها أو قولها ، وحركتها ، وسكوتها إلا حياة تبليغ وبلاغ " .

---

(١) الحديث النبوي رؤية فنية جمالية د/ صابر عبد الدايم ص ١١ دار الوفاء، اسكندرية د. ت

إن أسلوب الاستفهام التقريرى مستمر طوال الخطاب؛ لأنه الأصلح لمثل هذه الخطابات حيث تقرير المعنى فى النفوس وترسيخه فى الأعماق .

(أليس يوم النحر ، وأليس ذو الحجة ، أليست بالبلدة الحرام ؟) إنهم يقرون بهذا فوجب التعظيم والتوقير .

إنه بعد أن عظّم هذه الأمور فى أنفسهم عن طريق الاستفهام أيضاً ، أي يوم هذا ؟ أي بلد هذا ؟ فهو يسألهم لا ليعلم ؛بل ليؤكد على عظم حرمتها وجلال قدرها . ثم يستخدم الأسلوب نفسه؛ لإقرارهم بما أراد لهم أن يقروا به .

إنه أسلوب راق هادئ فى الحوار، أسلوب يتمتع بالإقناع والإمتاع ،فهو أسلوب مبنى على الحوار والبعد عما تأنفه النفس من أمر ونهي ..

إن هذا الخطاب النبوي الشريف اشتمل على صور بيانية تعمق الاحساس بعظمة ما ذكر ، فقد شبه صلوات الله وسلامه عليه حرمة الدماء والأموال بحرمة اليوم وحرمة الشهر ، واستخدم الكناية فى قوله : (يوم النحر والبلد الحرام) فالأول: كناية عن عيد الأضحى والثانى: عن مكة ، وجاء المجاز المرسل بجانب الاستعارة والكناية ؛ لتعميق حرمة هذه الأشياء ، فالتعبير بـ (الدماء) من المجاز المرسل لعلاقة المسببية حيث عبر بالمسبب وهو الدماء وأراد السبب وهو القتل بغير وجه حق . وعبر بـ (الأموال) وهي مسبب وأراد السبب وهو اغتصابها ظلماً وعدواناً .

*****

المبحث الثاني

بلاغة الرد في خطابات الرسول صلى الله عليه وسلم ودورها في إقرار السلم

إن النفس الإنسانية فيها من الشرور والأذى شيء كثير لا يحصى ، فقد تستثار لتنطق برديء الكلام وسيء المقال ، وفي هذه الحال تبرز أهمية بلاغة الرد وحسن الجواب على القريب والبعيد ، والصديق والعدو ، والمسلم وغيره ؛ لأننا لو لم نحسن الرد ونجيد فن الجواب وصناعة الخطاب قامت فتن وحروب ، وفي التاريخ شواهد كثيرة على خطر الكلمة .

يذكر أن عمرو بن هند قال ذات يوم لندمائه : هل تعلمون أحداً من العرب تأنف أمه من خدمة أمي؟ فقالوا : نعم ، أم عمرو بن كلثوم ، فأرسل عمرو ابن هند إلى عمرو بن كلثوم يطلب زيارته مع أمه ، فأقبل ابن كلثوم مع أمه ، فدخل هو على ابن هند ، و دخلت أمه على هند أم عمرو ، وكان عمرو ابن هند قد أمر أمه أن تنحي الخدم ، وتستخدم ليلى أم عمرو بن كلثوم ،فلما حضر الطعام ،قالت هند لليلى : يا ليلى ، ناوليني ذلك الطبق ، فقالت ليلى : لتقم صاحبة الحاجة إلى حاجتها ، فأعادت عليها وألحت ، فصاحت ليلى وا ذُلّاه ! يا لتغلب ، فسمعها ابنها عمرو ابن كلثوم فثار الدم في وجهه، فاخترط السيف فضرب رأس عمرو بن هند وذهب ، وقال معلقته المشهورة التي أولها : ألا هُبي بصَحنِكِ فاصبحينا ولا تبقي خمور الأندرينا.

ولهذا نجد أن رسول الله – صلى الله عليه و سلم – كان دائماً يرغبنا في الحلم و يحثنا عليه ، ويدعونا إلى حسن الرد وكظم الغيظ ، وفي خطابه صلى الله عليه وسلم دعوة جليلة إلى الرفق في القول و الحلم في الموقف الصعب وهذا ما يتضح من خلال هذا الفصل ..

****

عَنْ عَائِشَةَ ، أَنَّ رَجُلًا اسْتَأْذَنَ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَلَمَّا رَآهُ قَالَ : " بِئْسَ أَخُو الْعَشِيرَةِ وَبِئْسَ ابْنُ الْعَشِيرَةِ " ، فَلَمَّا جَلَسَ تَطَلَّقَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي وَجْهِهِ وَانْبَسَطَ إِلَيْهِ ، فَلَمَّا انْطَلَقَ الرَّجُلُ ، قَالَتْ لَهُ عَائِشَةُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، حِينَ رَأَيْتَ الرَّجُلَ قُلْتَ لَهُ : كَذَا وَكَذَا ، ثُمَّ تَطَلَّقْتَ فِي وَجْهِهِ وَانْبَسَطْتَ إِلَيْهِ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَا عَائِشَةُ : " مَتَى عَهِدْتِنِي فَحَّاشًا ، إِنَّ شَرَّ النَّاسِ عِنْدَ اللَّهِ مَنْزِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَنْ تَرَكَهُ النَّاسُ اتِّقَاءَ شَرِّهِ " . (١)

يعلمنا رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذا الخطاب النبوي الشريف الذكاء الاجتماعي ، ذلك الذكاء الذي تم الاصطلاح عليه ووضع مفهومه في العصر الحديث و قد عمل به رسول الله صلى الله عليه وسلم منذ أكثر من ألف وأربعمائة عام صلوات ربي و سلامه عليه ، والذكاء الاجتماعي يخالف تماماً النفاق فأحياناً ما يتعرض الإنسان لموقف لا يستطيع الخلاص منه إلا بالمعاملة والتصنع في القول حفاظاً على الغير ،و تجنباً للاشتباك معه و فراراً من بذاءته وسلاطة لسانه ، ودرءاً للصراع والنزاع ،هكذا علم رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه فخرجت الحكمة من أفواههم وخرج شعرهم معبراً عن هذا المعنى ، يقول زهير بن أبي سلمى :

ومن لم يصانع في أمور كثيرة :::: يضرس بأنياب ويوطأ بمنسم (١)

هذا الحديث يحكي حالتين مختلفتين لرسول الله صلى الله عليه وسلم مع شخص واحد، فعندما رآه رسول الله صلى الله عليه وسلم قال عنه : (بئس أخو

(١) صحيح البخاري ٤/١٩٠٦

(١) ينظر شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات لأبي بكر محمد بن القاسم الأنباري ص ٢٨٦ تحقيق / عبد السلام هارون – دار المعارف، القاهرة ، ط ١٤٠٠ هـ / ١٩٨٠ م

العشيرة ، وبئس ابن العشيرة) و هذا ذم صريح لهذا الرجل ، بل ذَمٌ فيه إطناب بالإيضاح بعد الإبهام .

ثم تغير حال الرسول صلى الله عليه وسلم عندما جلس هذا الرجل فبادره صلى الله عليه وسلم بطلاقة الوجه و بسط الحديث وهذا مخالف لقوله عنه عندما رآه مما دعا عائشة رضي الله عنها للسؤال عن السبب الذي دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى تلك المفارقة المحيرة المدهشة.

فبادرها رسول الله صلى الله عليه وسلم بنفي الشبهة عنه، وإزالة الريب والشك الذي لحق بها لتهدأ نفسها ويطمئن قلبها ثم بعد ذلك بين ووضح لها السبب بتلك العبارة الرائعة و الحكمة التي ينبغي أن نجعلها نبراساً لنا في الحياة وطريقاً نسلكه مع من نريد اتقاء شره .

أجابها صلى الله عليه وسلم بقوله : " إن شر الناس عند الله منزلة يوم القيامة من تركه الناس اتقاء شره " .

يا لها من حكمة حكيمة و مقولة صائبة تجرى مجرى المثل.

كان بإمكانه صلى الله عليه وسلم أن يقول لها: فعلتُ ذلك اتقاء لشره وتجنباً لغدره ، ولكنه صلى الله عليه وسلم جاء معلماً للعالمين و هادياً للبشرية أجمعين.

فأراد صلى الله عليه وسلم أن يعمم هذا الحدث الشخصي للاستفادة ، وهكذا كان ديدن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أبدع حكمة الرسول و ما أجل موقفه ، وما أصدق هديه ، ذلك الهدي الذي يحرص في كل موقف على عدم إثارة الفتن أو قيام الصراعات والنزاعات، بل كان يعمل دائماً على إقرار السلم في المجتمع بين الأفراد بعضهم ببعض وبين الجماعات بعضها ببعض وبين الفرد والجماعة ، إننا نستميحك العفو يا سيدى يا رسول الله و نطلب منك الصفح عن

تقصيرنا وعجزنا عن نشر هديك كما يليق بك، و شفيعنا في هذا أن خطونا وئيد، وحسبنا أننا نحاول ذلك ، صلوات ربي وسلامه عليك.

إن الرسول صلى الله عليه وسلم لمعرفته بسوء ذلك الرجل أسند الفعل (بئس) إليه ، وهذا مبالغة في ذمه وكذلك التعريف بالإضافة في قوله " شر الناس " جاء أيضاً للذم ،والتعريف في " الناس " لقصد الجنس ،أي جنس الناس.

أما التنكير في (منزلة) فدل على هوان منزلة هذا الرجل عند الله تعالى وكان للتقديم حضور في هذا الحديث الشريف فقد قدم المسند إليه على المسند في قوله (إن شر الناس عند الله منزلة من تركه الناس اتقاء شره)لأن الأصل أن يقول : " من تركه الناس اتقاء شره هو شر الناس " ولكنه عندما قدم المسند إليه شوق المتلقي للخبر، وفي تقديم الظرف " عند الله" على التمييز " منزلة " تعظيم لهول الموقف.

إن الاستفهام في خطاب رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج إلى الإنكار، و هو يحمل في طياته لوماً و عتاباً للسيدة عائشة رضي الله عنها على ما أصابها من الحيرة والدهشة لتصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم وكأنه قد دار في خلدها نوع من المصالحة التي لا تليق برسول الله صلى الله عليه وسلمحاشاه ذلك ؛ ولذا جا الرد عليها مؤكداً بـ (أن) فى قوله " إن شر الناس يوم القيامة ...."

إن هذا الحديث النبوي الشريف مدرسة تعلمنا كيف يكون الخطاب مع من أردنا اتقاء شره ، كما تعلمنا هذه المدرسة كيف يكون الخطاب لمن أصابته الحيرة والدهشة والشك في تصرفاتنا على مقربة منا ومعرفة بشخصيتنا، وكان من المفروض أن يكون أبعد من أن يشك أو يتهم .

هل نبادره بالخصام والامتناع عن مصاحبته ومجالسته؟!! لا، لم يفعلها رسول الله صلى الله عليه وسلم هل ننفى التهمة ونكتفي بذلك ؟!! لا أيضاً ؛ لأن هذا يترك في نفس المتلقي بقية من شك لابد من إزالتها.

هل نبادره باللوم والعتاب ،كيف يسمح لنفسه بأن يشك في صديقه وجليسه؟!! لا، أيضاً لم يفعلها رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛إننا إذا تأملنا في هذا الخطاب النبوي وجدناه صلى الله عليه وسلم قد فعل أمرين بحكمة شديدة وعناية فائقة، إنه نفى التهمة أولاً عن نفسه بطريقة بلاغية رائعة عن طريق الاستفهام (مَتَى عَهِدْتِنِي فَحَّاشًا) هذا الاستفهام الذي يحمل في طياته معان كثيرة

أولها : دفع التهمة عن نفسه وتبرئته مما يظن فيه.

ثانيها : إلقاء اللوم والعتاب والإنكار على من شك فيه.

ثالثها : ترك المتحدث للتفكر والتعقل و تأنيب نفسه على ما صدر منه فلم يبادر صلى الله عليه وسلم بنفي التهمة صراحة، لم يقل " لم أك مداهناً أو منافقاً أو مصانعاً بما لا يليق بي ".

ثم ماذا بعد أن نفى التهمة عن نفسه بهذا الأسلوب الراقي أعطى لنا بعد ذلك سبب هذا التصرف بطريقة لا تقل بلاغة عن سابقتهان أما آن الأوان لأمة الإيمان أن تتعلم من رسول الرحمن ،وأن تتخذ خطاباته هادياً ودليلاً ؛ لتجنب الصراعات والنزاعات و التفرقات والشتات.

****

ومن هذه الخطابات أيضاً :

عن جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ –رضي الله عنهما– قَالَ: كُنَّا فِي غَزَاةٍ فَكَسَعَ رَجُلٌ مِنْ الْمُهَاجِرِينَ رَجُلًا مِنْ الْأَنْصَارِ، فَقَالَ الْأَنْصَارِيُّ: يَا لَلْأَنْصَارِ، وَقَالَ الْمُهَاجِرِيُّ: يَا لَلْمُهَاجِرِينَ، فَسَمِعَ ذَلِكَ رَسُولُ اللَّهِ –صلى الله عليه وسلم– فَقَالَ: (مَا بَالُ دَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ؟) قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ: كَسَعَ رَجُلٌ مِنْ الْمُهَاجِرِينَ رَجُلًا مِنْ

الْأَنْصَارِ، فَقَالَ: (دَعُوهَا فَإِنَّهَا مُنْتِنَةٌ). فَسَمِعَ بِذَلِكَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أُبَيٍّ، فَقَالَ: فَعَلُوهَا، أَمَا وَاللَّهِ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ. فَبَلَغَ النَّبِيَّ – صلى الله عليه وسلم – ، فَقَامَ عُمَرُ، فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ: دَعْنِي أَضْرِبْ عُنُقَ هَذَا الْمُنَافِقِ، فَقَالَ النَّبِيُّ – صلى الله عليه وسلم – : (دَعْهُ، لَا يَتَحَدَّثُ النَّاسُ أَنَّ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ)(١)

في غزوة بني المصطلق تزاحم الناس على الماء، فاقتتل رجلان من المهاجرين وكان الأول يقود فرساً لعمر – رضي الله عنه – والآخر من الأنصار وكان حليفاً لعبد الله بن أبي ، واستغاث المهاجري بالمهاجرين، والأنصاري بالأنصار ، وكادت تثور فتنة وتقوم حرب، وهنا نشأ الحوار الحاد الشديد النبرة ، فيستأذن عمر – رضي الله عنه – النبي صلوات الله وسلامه عليه في قتل من صدر منه الوعيد ، لكن رسول الرحمة والسلام كان له رأي آخر أعلن عنه بقوله: دعه لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه ، وهنا توأد الفتنة في مهدها ، ويعود المسلمون إلى الصفاء.

إن بلاغة الخطاب النبوي الشريف وطريقة صياغته خدمت المعنى الذي قصده النبي الكريم، فقد وجههم إلى ما فى قولهم: (ياللأنصار ويالللمهاجرين) من قبح بالغ ، حيث قال : ما بال دعوى الجاهلية ؟ وفي مواجهة النبي لهذه الاستغاثة مؤذناً باستنكار واستهجان ما تفوهوا به (دعوها فإنها منتنة) فعبر بضمير الغيبة (دعوها) أي دعوى الجاهلية ؛لاستهجان ذكرها ، والأمر في (دعوها) مع دلالته على الوجوب يفيد النصح والإرشاد، ويرشح تلك الإفادة ما أعقبه من تعليل وهو قوله (فإنها منتنة) وقد جاء هذا التعليل مصحوباً بالتأكيد

(١) صحيح البخاري ، كتاب تفسير القرآن ، باب قوله يقولون لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل.

مع أن الخبر غير مشكوك فيه،؛ ليتلقى الأمر بالقبول لأول وهلة ؛ حيث التأكيد للخبر يفيد تعظيمه.

والتعبير بالمضارع (يتحدث ، يقتل) ليتصور عمر ما قد يترتب مستقبلا من إقدامه على قتل ذلك المنافق ، إذ تشيع بين الناس الأقاويل والافتراءات ولذا كان التعريف في (الناس) لبيان الجنس أي: الذين عرفوا بحبهم لإشاعة الكلام فيما بينهم ومساومتهم في أعراض غيرهم وربما كان هذا سر إيثار النبي الكريم الإذن بقتل هذا المنافق (عبدالله بن أبي) ولوجود هذه الرغبة في نفسه ودوامها عبر بالمضارع (أضرب) ثم بين الداعي لهذه الرغبة بكونه منافقاً صريح النفاق عرف لفظ (المنافق) بـ (أل) وأشار إليه بـ (هذا) الموضوع للقريب إيماء في الاحتقار والضعة.

والأمر في قوله صلى الله عليه وسلم (دعه) يفيد التوجيه والإرشاد ، وجملة (لا يتحدث الناس) فيها إيجاز بالحذف ؛ إذ هي جواب شرط محذوف ، والتقدير : (إن تدعه لا يتحدث الناس) وهذه الجملة الشرطية بجزأيها في موقع الخبر لـ (إن) المحذوفة مع اسمها ؛ إذ الأصل : إنك إن تدعه لا يتحدث الناس ...) وجملة إن واسمها وخبرها في موقع التعليل للأمر.

إن منهج الإسلام الثابت أنه دين سلام يدعو إلى الحوار واللين والرحمة والرفق بالبشر، ما لم يصر الطرف الآخر على القوة، وهكذا فتح النبي صلى الله عليه وسلم باب الحوار مع الكل ، ذلك الحوار الذي يتجلى فيه حلم الرسول صلى الله عليه وسلم وعفوه وحسن رده وجميل جوابه حيث كان شغل النبي صلى الله عليه وسلم الشاغل أن يسلم الناس لرب العالمين، فقد جاء برسالة الرحمة ؛ ولذا تلطف في المعاملة ومن ذلك أيضا إضافة لما سبق ذكره:

عنْ أَبِي الزُّبَيْرِ ، عَنْ جَابِرٍ ، أَنّ النَّبِيَّ ﷺ قَسَمَ بِالْجِعْرَانَةِ قَسْمًا ، فَأَتَاهُ رَجُلٌ ، فَقَالَ : اعْدِلْ يَا مُحَمَّدُ فَإِنَّكَ لَمْ تَعْدِلْ ، فَقَالَ : " وَيْلَكَ ، وَمَنْ يَعْدِلُ إِنْ لَمْ أَعْدِلْ؟ "فَقَالَ عُمَرُ : دَعْنِي أَضْرِبُ عُنُقَهُ، قَالَ : " لا ، إِنَّ هَذَا وَأَصْحَابًا لَهُ يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ مَا يَعْدُو تَرَاقِيَهُمْ ، يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ "

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ، قَالَ : " كُنْتُ أَمْشِي مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَعَلَيْهِ بُرْدٌ نَجْرَانِيٌّ غَلِيظُ الْحَاشِيَةِ ، فَأَدْرَكَهُ أَعْرَابِيٌّ فَجَبَذَهُ حَتَّى رَأَيْتُ صَفْحَهُ أَوْ صَفْحَةَ عُنُقِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدْ أَثَّرَتْ بِهَا حَاشِيَةُ الْبُرْدِ مِنْ شِدَّةِ جَبْذَتِهِ ، فَقَالَ : يَا مُحَمَّدُ أَعْطِنِي مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي عِنْدَكَ " فَالْتَفَتَ فَضَحِكَ عَلَيْهِ السَّلامُ ، ثُمَّ أَمَرَ لَهُ بِعَطَاءٍ " ..(١)

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ، رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ ، أَنَّ أَعْرَابِيًّا جَاءَ إِلَى النَّبِيِّ ، صَلَّى اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، يَسْتَعِينُهُ فِي شَيْءٍ فَأَعْطَاهُ شَيْئًا ، ثُمَّ قَالَ : أَحْسَنْتُ إِلَيْكَ ؟ ، قَالَ الأَعْرَابِيُّ : لا ، وَلا أَجْمَلْتَ . قَالَ : فَغَضِبَ الْمُسْلِمُونَ وَقَامُوا إِلَيْهِ ، فَأَشَارَ إِلَيْهِمْ : أَنْ كُفُّوا ، ثُمَّ قَامَ النَّبِيُّ ، صَلَّى اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَدَخَلَ مَنْزِلَهُ ، ثُمَّ أَرْسَلَ إِلَى الأَعْرَابِيِّ ، فَدَعَاهُ إِلَى الْبَيْتِ ، فَقَالَ : إِنَّكَ جِئْتَنَا فَسَأَلْتَنَا فَأَعْطَيْنَاكَ ، فَقُلْتَ مَا قُلْتَ ، فَزَادَهُ رَسُولُ اللَّهِ ، صَلَّى اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، شَيْئًا ، ثُمَّ قَالَ : أَحْسَنْتُ إِلَيْكَ ؟ . قَالَ الأَعْرَابِيُّ : نَعَمْ ، فَجَزَاكَ اللَّهُ مِنْ أَهْلٍ وَعَشِيرَةٍ خَيْرًا ، فَقَالَ له النَّبِيُّ ، صَلَّى اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : إِنَّكَ جِئْتَنَا فَسَأَلْتَنَا فَأَعْطَيْنَاكَ ، وَقُلْتَ مَا قُلْتَ وَفِي أَنْفُسِ أَصْحَابِي شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ ، فَإِنْ أَحْبَبْتَ فَقُلْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ مَا قُلْتَ بَيْنَ يَدَيَّ ؛ حَتَّى يَذْهَبَ مِنْ صُدُورِهِمْ مَا فِيهَا عَلَيْكَ . قَالَ : نَعَمْ ، فَلَمَّا كَانَ الْغَدُ أَوِ الْعَشِيُّ جَاءَ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ، صَلَّى اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : إِنَّ صَاحِبَكُمْ هَذَا كَانَ جَاءَ فَسَأَلَنَا ، فَأَعْطَيْنَاهُ ، فَقَالَ مَا قَالَ ، وَإِنَّا دَعَوْنَاهُ إِلَى الْبَيْتِ فَأَعْطَيْنَاهُ ،

(١) مسند أحمد بن حنبل ج٣/ص١٥٣

فَزَعَمَ أَنَّهُ قَدْ رَضِيَ ، أَكَذَلِكَ ؟ قَالَ الأَعْرَابِيُّ : نَعَمْ ، فَجَزَاكَ اللَّهُ مِنْ أَهْلٍ وَعَشِيرَةٍ خَيْرًا . قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ : فَقَالَ النَّبِيُّ ، صَلَّى اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : أَلا إِنَّ مَثَلِي وَمَثَلَ هَذَا الأَعْرَابِيِّ ؛ كَمَثَلِ رَجُلٍ لَهُ نَاقَةٌ شَرَدَتْ عَلَيْهِ ، فَاتَّبَعَهَا النَّاسُ فَلَمْ يَزِيدُوهَا إِلا نُفُورًا ، فَنَادَاهُمْ صَاحِبُ النَّاقَةِ : خَلُّوا بَيْنِي وَبَيْنَ النَّاقَةِ فَأَنَا أَرْفَقُ النَّاسِ بِهَا وَأَعْلَمُ ، فَتَوَجَّهَ لَهَا صَاحِبُ النَّاقَةِ بَيْنَ يَدَيْهَا ، فَأَخَذَ لَهَا مِنْ قُمَامِ الأَرْضِ ، فَرَدَّهَا هَوْنًا حَتَّى جَاءَتْ وَاسْتَنَاخَتْ ، وَشَدَّ عَلَيْهَا رَحْلَهَا وَاسْتَوَى عَلَيْهَا ، وَإِنِّي لَوْ تَرَكْتُكُمْ حَيْثُ قَالَ الرَّجُلُ مَا قَالَ ، فَقَتَلْتُمُوهُ ، دَخَلَ النَّارَ .(١)

****

قَالَ زَيْدُ بْنُ سَعْنَةَ : إِنَّهُ لَمْ يَبْقَ مِنْ عَلامَاتَ النُّبُوَّةِ شَيْءٌ إِلا وَقَدْ عَرَفْتُهَا فِي وَجْهِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهِ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَ نَظَرْتُ إِلَيْهِ ، إِلا اثْنَتَيْنِ لَمْ أَخْبُرْهُمَا مِنْهُ: يَسْبِقُ حِلْمُهُ جَهْلَهُ ، وَلا يَزِيدُهُ شِدَّةُ الْجَهْلِ عَلَيْهِ إِلا حِلْمًا ، فَكُنْتُ أَتَلَطَّفُ لَهُ لأَنْ أُخَالِطَهُ فَأَعْرِفَ حِلْمَهُ وَجَهْلَهُ ، قَالَ : فَخَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهِ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ الْحُجُرَاتِ ، وَمَعَهُ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ ، فَأَتَاهُ رَجُلٌ عَلَى رَاحِلَتِهِ كَالْبَدَوِيِّ ، فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، قَرْيَةُ بَنِي فُلانٍ قَدْ أَسْلَمُوا وَدَخَلُوا فِي الإِسْلامِ ، وَكُنْتُ أَخْبَرْتُهُمْ أَنَّهُمْ إِنْ أَسْلَمُوا أَتَاهُمُ الرِّزْقُ رَغَدًا ، وَقَدْ أَصَابَهُمْ شِدَّةٌ وَقَحْطٌ مِنَ الْغَيْثِ ، وَأَنَا أَخْشَى يَا رَسُولَ اللَّهِ ، أَنْ يَخْرُجُوا مَنَ الإِسْلامِ طَمَعًا كَمَا دَخَلُوا فِيهِ طَمَعًا ، فَإِنْ رَأَيْتَ أَنْ تُرْسِلَ إِلَيْهِمْ مَنْ يُغِيثُهُمْ بِهِ فَعَلْتَ ، قَالَ : فَنَظَرَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهِ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى رَجُلٍ جَانِبَهُ ، أُرَاهُ عُمَرُ ، فَقَالَ : مَا بَقِيَ مِنْهُ شَيْءٌ يَا رَسُولَ اللَّهِ ، قَالَ زَيْدُ بْنُ سَعْنَةَ : فَدَنَوْتُ إِلَيْهِ فَقُلْتُ لَهُ : يَا مُحَمَّدُ ، هَلْ لَكَ أَنْ تَبِيعَنِي تَمْرًا مَعْلُومًا مِنْ حَائِطِ بَنِي فُلانٍ إِلَى أَجْلِ كَذَا وَكَذَا ؟ فَقَالَ : " لا ، يَا يَهُودِيُّ ، وَلَكِنْ أَبِيعُكَ تَمْرًا مَعْلُومًا إِلَى أَجْلِ كَذَا وَكَذَا ، وَلا أُسَمِّي حَائِطَ بَنِي فُلانٍ " ، قُلْتُ : نَعَمْ ، فَبَايَعَنِي

(١) البخاري كتاب الدعوات، باب: قول الله تعالى: "وصل عليهم" رقم٥٩٧٧،جـ٥،صـ٢٣٣٣

صَلَّى اللَّهِ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَأَطْلَقْتُ هُمْيَانِي ، فَأَعْطَيْتُهُ ثَمَانِينَ مِثْقَالا مِنْ ذَهَبٍ فِي تَمْرٍ مَعْلُومٍ إِلَى أَجْلٍ كَذَا وكَذَا ، قَالَ : فَأَعْطَاهَا الرَّجُلَ وَقَالَ : " اعْجَلْ عَلَيْهِمْ وأَغِثْهُمْ بِهَا" ، قَالَ زَيْدُ بْنُ سَعْنَةَ : فَلَمَّا كَانَ قَبْلُ مَحَلِّ الأَجَلِ بِيَوْمَيْنِ أَوْ ثَلاثَةٍ ، خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهِ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي جَنَازَةِ رَجُلٍ مِنَ الأَنْصَارِ وَمَعَهُ أَبُو بَكْرٍ ، وَعُمَرُ ، وَعُثْمَانُ وَنَفَرٌ مِنْ أَصْحَابِهِ ، فَلَمَّا صَلَّى عَلَى الْجَنَازَةِ دَنَا مِنْ جِدَارٍ فَجَلَسَ إِلَيْهِ ، فَأَخَذْتُ بِمَجَامِعِ قَمِيصِهِ ، وَنَظَرْتُ إِلَيْهِ بِوَجْهٍ غَلِيظٍ ، ثُمَّ قُلْتُ : أَلا تَقْضِينِي يَا مُحَمَّدُ حَقِّي ؟ فَوَاللَّهِ مَا عَلِمْتُكُمْ بَنِي عَبْدَ الْمُطَّلِبِ بِمَطْلٍ ، وَلَقَدْ كَانَ لِي بِمُخَالَطَتِكُمْ عِلْمٌ ، قَالَ : وَنَظَرْتُ إِلَى عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ وَعَيْنَاهُ تَدُورَانِ فِي وَجْهِهِ كَالْفَلَكِ الْمُسْتَدِيرِ ، ثُمَّ رَمَانِي بِبَصَرِهِ وَقَالَ : أَيْ عَدُوَّ اللَّهِ ، أَتَقُولُ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهِ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا أَسْمَعُ ، وَتَفْعَلُ بِهِ مَا أَرَى ؟ فَوَالَّذِي بَعَثَهُ بِالْحَقِّ ، لَوْلا مَا أُحَاذِرُ فَوْتَهُ لَضَرَبْتُ بِسَيْفِي هَذَا عُنُقَكَ ، وَرَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهِ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَنْظُرُ إِلَى عُمَرَ فِي سُكُونٍ وَتُؤَدَةٍ ، ثُمَّ قَالَ : " إِنَّا كُنَّا أَحْوَجَ إِلَى غَيْرِ هَذَا مِنْكَ يَا عُمَرُ ، أَنْ تَأْمُرَنِي بِحُسْنِ الأَدَاءِ ، وَتَأْمُرَهُ بِحُسْنِ التِّبَاعَةِ ، اذْهَبْ بِهِ يَا عُمَرُ فَاقْضِهِ حَقَّهُ ، وَزِدْهُ عِشْرِينَ صَاعًا مِنْ غَيْرِهِ مَكَانَ مَا رُعْتَهُ " ، قَالَ زَيْدٌ : فَذَهَبَ بِي عُمَرُ فَقَضَانِي حَقِّي ، وَزَادَنِي عِشْرِينَ صَاعًا مِنْ تَمْرٍ ، فَقُلْتُ : مَا هَذِهِ الزِّيَادَةُ ؟ قَالَ : أَمَرَنِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهِ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ أَزِيدَكَ مَكَانَ مَا رُعْتُكَ ، فَقُلْتُ : أَتَعْرِفُنِي يَا عُمَرُ ؟ قَالَ : لا ، فَمَنْ أَنْتَ ؟ قُلْتُ : أَنَا زَيْدُ بْنُ سَعْنَةَ ، قَالَ : الْحَبْرُ ؟ قُلْتُ : نَعَمْ ، الْحَبْرُ ، قَالَ : فَمَا دَعَاكَ أَنْ تَقُولَ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهِ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا قُلْتَ ، وَتَفْعَلُ بِهِ مَا فَعَلْتَ ، فَقُلْتُ : يَا عُمَرُ كُلُّ عَلامَاتَ النُّبُوَّةِ قَدْ عَرَفْتُهَا فِي وَجْهِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهِ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَ نَظَرْتُ إِلَيْهِ إِلا اثْنَتَيْنِ لَمْ أَخْتَبِرْهُمَا مِنْهُ : يَسْبِقُ حِلْمُهُ جَهْلَهُ ، وَلا يَزِيدُهُ شِدَّةُ الْجَهْلِ عَلَيْهِ إِلا حِلْمًا ، فَقَدْ اخْتَبَرْتُهُمَا ، فَأُشْهِدُكَ يَا عُمَرُ أَنِّي قَدْ رَضِيتُ بِاللَّهِ رَبًّا ، وَبِالإِسْلامِ دِينًا ، وَبِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهِ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَبِيًّا ، وَأُشْهِدُكَ أَنَّ شَطْرَ مَالِي فَإِنِّي أَكْثَرُهَا مَالا صَدَقَةٌ عَلَى أُمَّةِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهِ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ،

فَقَالَ عُمَرُ : أَوْ عَلَى بَعْضِهِمْ ، فَإِنَّكَ لا تَسَعُهُمْ كُلَّهُمْ ، قُلْتُ : أَوْ عَلَى بَعْضِهِمْ ، فَرَجَعَ عُمَرُ وَزَيْدٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهِ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَقَالَ زَيْدٌ : أَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ صَلَّى اللَّهِ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَآمَنَ بِهِ وَصَدَّقَهُ ، وَشَهِدَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهِ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَشَاهِدَ كَثِيرَةً ثُمَّ تُوُفِّيَ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ مُقْبِلا غَيْرَ مُدْبِرٍ رَحِمَ اللَّهِ زَيْدًا ، قَالَ : فَسَمِعْتُ الْوَلِيدَ ، يَقُولُ : حَدَّثَنِي بِهَذَا كُلِّهِ مُحَمَّدُ بْنُ حَمْزَةَ ، عَنْ أَبِيهِ ، عَنْ جَدِّهِ ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَلامٍ .(١)

في هذه الأحاديث النبوية الشريفة أراد رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم أن يعلم أصحابه درساً فى الأناة والصبر وضبط النفس وكظم الغيظ ، واللغة التي ينبغي بها التحاور مع من تجاوز في كلامه، وأخطأ في حق من يخاطبه ، والأسلوب الأمثل لمخاطبة من يخالفنا .

إن الرسول الحليم لم تأخذه القسوة في التعامل مع النماذج السابقة ، ولم يتطاول في رده، ولم يقابل الإساءة بالإساءة ، ولا العنف بالعنف وكان بإمكانه أن يفعل ذلك لكنه صاحب الخلق العظيم من أدّبه ربه فأحسن تأديبه، وصاحب اللسان العفيف الذي لا ينطق عن الهوى، بل ينطق بالحكمة والبلاغة والفصاحة

فنجده مرة لم يزد على أن ضحك وأمر للأعرابي بالعطاء ، وأنهي الموقف بهذا التصرف الرائع الحكيم ؛ لأن أمثال هؤلاء الأعراب "لو عوجلوا بالعقوبة لقضت عليهم ، ولما كانت ظلماً . لكن المصلحين العظماء لا ينتهون بمصاير العامة إلى هذا الختام الأليم ،إنهم يفيضون من أناتهم على ذوى النزق حتى يلجئوهم إلى الخير إلجاء ، ويطلقوا ألسنتهم تلهج بالثناء . وثمن ذلك لا يضن به الواجد الأريب ، ولو كان عطاء سخيا، فما بذل المال إلى جانب ملك الأنفس ؟ إن

(١) المعجم الكبير للطبراني ، الأحاديث الطوال، باب الزاي .

الأعرابي الذى اشترى رضاه بما علمت لا يبعد أن تراه بعد أيام وقد كلف بعمل خطير. يقدم فيه عنقه عن طيب خاطر !!"

ونجده مرة أخرى لم يغضب لنفسه عندما نهره ذلك اليهودي وشدد عليه في المسألة واتهمه بما ليس فيه، فكان جوابه في غاية الإيجاز والإفادة فلم يزد في جوابه أن حذره من تفكيره ، وبين له ما جهله ،" وَيْلَكَ ، وَمَنْ يَعْدِلُ إِنْ لَمْ أَعْدِلْ ؟ "

ثم لما طلب عمر الإذن بقتله لم يزد رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قوله : (لا) ،ثم أعطى العلة من التعامل معه برفق ولطف ، أعطاه في ذلك التركيب اللغوي الذي امتزجت فيه الألفاظ بالمعاني في سياق بياني خاص موحي بدلالات تحمل التأثير في المخاطب وتخلق انفعالاً لديه ومشاركة للموقف (إِنَّ هَذَا وَأَصْحَابًا لَهُ يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ مَا يَعْدُو تَرَاقِيَهُمْ ، يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ) إن التعبير الحقيقي المباشر لا يفي بإيحاءات تلك الصورة ،ولن يحدث أثراً واستجابة في النفوس، ولذا كان هذا التشبيه الرائع الذي زاد المعنى وضوحاً وأكسبه تأكيداً ،فقد جاء واصفاً صورتهم بعناية شديدة وألفاظ دقيقة ،إن هؤلاء الأعراب لم يتمكن الدين من نفوسهم ، فقراءتهم للقرآن واهية ، وقد يخرجون من الدين وينفلتون منه بسرعة شديدة كما ينطلق السهم، لقد جمع التشبيه صفات ثلاثة كما يقول ابن الأثير: "المبالغة ، والبيان، والإيجاز"[(١)]

واستعمال الكاف للتشبيه هنا للتقريب بين الطرفين ، وجعل البعيد قريباً ، لاستيعاب تلك الصورة ، والتفاعل المباشر معها . فالرسول صلى الله عليه وسلم كان يعلم نفسية هؤلاء الأعراب ، ويتجاوز عن جفاتهم ممن يريد تأليف قلبه على

(١) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر لابن الأثير الجزري، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، ج١،ص ٣٩٦، شركة ومكتبة ومطبعة البابي الحلبي وأولاده بمصر١٩٣٦م .

الإسلام خشية الخروج منه ، فينبغي التأسى به في خلقه الجميل من الصفح والإغضاء والدفع بالتي هي أحسن ، والاقتداء به في إقرارِ مبادئ الحقِّ والعدل والأمن والسلام، وإحلال الألفةِ والوئام محل التنافر والخصام ؛ حتى تسلمَ الإنسانيةُ المعذبة من الهلاكِ والدَّمار

إنه محمد رسول الله الذي عرف طبائع البشر وخبر نفسياتهم فتعامل معهم التعامل المناسب بالأسلوب الأمثل لكل واحد ، مع عدم إقرار خطئهم، وعدم التهاون في حق الله ،فما انتقم لنفسه قط، إلا أن تنتهك حرمة الله فينتقم لله بها.

ونجده في قمة لطفه ورفقه وحلمه وصبره وأدبه صلوات ربي وسلامه عليه عندما اجتهد اليهودي قدر ما يستطيع لكي يصل برسول الله صلى الله عليه وسلم إلى قمة الغضب، فقام بعِدّة أمور، الواحد منها يكفي لإثارة غضب أي إنسان.. فقد ذهب – أولاً– لطلب الدَّيْن المستحق له قبل الموعد المحدد له ؛ وليس له حق في هذا التوقيت.

ثم أخذ – ثانيًا – بمجامع قميصه وردائه صلى الله عليه وسلم يجذبه!! وتخيل هذا الموقف وقد أمسك اليهودي برداء النبي صلى الله عليه وسلم يجذبه منه ، والرسول صلى الله عليه وسلم في وسط أصحابه ، وأمام الناس !

ثم نظر إليه – ثالثًا – بوجه غليظ.. ثم ناداه –رابعًا– باسمه مجردًا من أي لقب ولا كنية ، فقال: ألا تقضيني يا «محمد» حقي؟ ثم هو – خامسًا – يسبُّه صلى الله عليه وسلم ويَسُبُّ عائلته حين قال: فوالله إنكم – يا بني عبد المطلب– قوم مطل!! فهذه أسباب خمسة، فيها من التطاول والتعدي ما فيها.. فإذا أضفنا إلى كل هذا أن اليهودي يخاطب رأس المدينة المنورة وأعلى سلطة فيها، والرسول صلى الله عليه وسلم يقف آنذاك في وسط قوته وعزوته من المهاجرين والأنصار.. إذا أضفنا كل ذلك، عرفت أن الجزاء المتوقع لمثل هذا المتطاول قد يكون في أعراف كثير من الناس هو القتل! وهو ما لم يكن غريبًا؛ فقد اقترحه

عمر بن الخطاب – رضي الله عنه–الذي كان يحضر الواقعة، فماذا فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟! لقد تلقى صلى الله عليه وسلم هذه الاعتداءات ،لا أقول بمنتهي الحلم وغاية الصبر، بل تعدى الأمر أكثر من ذلك ، لقد وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم اللوم لعمر على تفكيره في قتل هذا الأعرابي ، ولفت نظره إلى تصرف آخر كان أولى وأهم بقوله صلى الله عليه وسلم : (إِنَّا كُنَّا أَحْوَجَ إِلَى غَيْرِ هَذَا مِنْكَ يَا عُمَرُ ، أَنْ تَأْمُرَنِي بِحُسْنِ الأَدَاءِ ، وَتَأْمُرَهُ بِحُسْنِ التِّبَاعَةِ) ، أي المطالبة

لقد أحيا محمد – صلى الله عليه وسلم – الأخلاقَ، ورفع شأنَ الفضـــيلة، وأيقظ النفوس، وصنع أمةً ملأ ذكرُها التاريخ، وبعث قومًا كانوا جفاة بداة لـــيس لهم حظٌّ من علم، فملؤوا الأرضَ عرفانًا ونورًا، وأدهشوا الأممَ العريقة، ومواقف الرسول صلى الله عليه وسلم في رفقه الذي يؤسس لمبدأ الأمن ، وتلطفه الـــذي يدعم السلم أكثر من أن تحصى، ومنها أيضاً :

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ أَعْرَابِيًّا دَخَلَ الْمَسْجِدَ وَرَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم جَالِسٌ فَصَلَّى، قَالَ ابْنُ عَبْدَةَ : رَكْعَتَيْنِ، ثُمَّ قَالَ : اللَّهُمَّ ارْحَمْنِي وَمُحَمَّدًا وَلَا تَرْحَمْ مَعَنَا أَحَدًا ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " لَقَدْ تَحَجَّرْتَ وَاسِعًا " ثُمَّ لَمْ يَلْبَثْ أَنْ بَالَ فِي نَاحِيَةِ الْمَسْجِدِ ، فَأَسْرَعَ النَّاسُ إِلَيْهِ ، فَنَهَاهُمْ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم وَقَالَ : دَعُوهُ" إِنَّمَا بُعِثْتُمْ مُيَسِّرِينَ وَلَمْ تُبْعَثُوا مُعَسِّرِينَ ، صُبُّوا عَلَيْهِ سَجْلًا مِنْ مَاءٍ" أَوْ قَالَ: " ذَنُوبًا مِنْ مَاءٍ "...[١]

(١) البخاري،٦١٢٨ رواه عن أبي هريرة ثلاثة من التابعين هم : سعيد بن المسيب وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود وأبو سلمة.

ما أجمل هذا الدين الذي يدعو للرفق واللين في النصح والإرشاد ، وما أسمى تعاليمه الحكيمة التي ترشد إلى السماحة واليسر ، وما أجل خطابه الذي يعالج المشكلات الاجتماعية بالرأفة والنصح.

لقد كان خطابه صلى الله عليه وسلم يراعي أحوال الناس ، والعوامل المؤثرة في شخصياتهم وأحوالهم، وكان يراعي بيئاتهم وطرائق تفكيرهم ، وصفاتهم السلوكية ، ومنزلتهم الاجتماعية، فهذا هو أعرابي يدخل مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم فينتحي منه ناحية ويقف يتبول، هذا الأعرابي لا يعرف أمور الدين ، ولا يدري حرمة المساجد التي أمر الله أن تعظم وتطهر، وكان يظن أن المسجد مثل أي مكان لا يمنع فيه التبول وقضاء الحاجة ؛ ولكن صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يروا هذا المنظر إلا برؤية مختلفة فرأوه منظراً مؤذياً مقززاً؛ ولذا سارعوا نحوه لضربه وتأديبه ؛ لأنه من وجهة نظرهم أساء الأدب مع الله ، وتعدى على حرمة المسجد وقداسته، لكن المصطفى صلوات ربي وسلامه واجه هذا الخطأ من قبل الأعرابي بعدة خطوات :أمرهم بعدم التعرض له بمسبة أو أي أذى وعندما أسرعوا إليه نهاهم عن ذلك بقوله: (دعوه) إنه أمر خرج عن معناه الحقيقي إلى الزجر والتوبيخ، لقد قام هذا الأمر المجازي مقام عدة جملة كانت ستقال في هذا الموقف منها على سبيل المثال : لماذا تفعلون معه هكذا !!! لماذا تؤنبونه ولماذا هممتم بضربه !!! لا تتعرضوا له فإنه معذور لأنه جاهل ،كان أولى من همكم بضربه أن تنصحوه وترشدوه للصواب، هذه كلها جمل كان من الممكن أن تقال لكن الرسول صلى الله عليه وسلم استعاض عن هذه الجمل كلها بذلك الفعل الذي استوعب كل هذه المعاني السالفة فضلاً عما فيه من الإيجاز الذي يتطلبه الموقف ؛ إذ لا بد من التصرف السريع في مثل هذه الأمور ؛ولذا جاء أمر آخر بعده وهو الخطوة الثانية (صُبُّوا) فعل أمر للوجوب ، كلفهم صلى الله عليه وسلم أن يصبوا على بوله دلواً من ماء تطهيراً

للمكان من النجاسة، ثم تجيء الخطوة الثالثة وهي إرشاد الصحابة رضوان الله عليهم إلى طريق الرفق في الدعوة ، واللطف في المعاملة ، وإعطاء قاعدة عامة ومنهج ليتم تطبيقه في معالجة مثل هذه المواقف "فَإِنَّمَا بُعِثْتُمْ مُيَسِّرِينَ وَلَمْ تُبْعَثُوا مُعَسِّرِينَ " إنه منهج التيسير ، صاغه رسول الله صلى الله عليه وسلم صياغة بلاغية رائعة موجزة ليسهل حفظه ، إنه قد أتى بطباق السلب (بُعِثْتُمْ .....وَلَمْ تُبْعَثُوا) وكأنه يسلب من الرسالة المحمدية كل ما هو سيء ، ويثبت لها كل ما هو حسن جيد ، كما أنه وضع اليسر في مقابلة العسر؛ ليتضح حسن الأول وقبح الثاني، ويتمايز الأمران، وبين ميسرين ومعسرين جناس ناقص ، وكأنه بالجناس يعقد مقارنة بين المنهجين ،وكأنه بالنقص يشير إلى أن منهج التعسير ناقص عن إدراك حالات البشر ، ناقص عن معرفة طرائق تفكيرهم.

إن هذه الطريقة في معالجة الأمور تؤتي ثمارها ،ففيها :تحديد الأهداف بدقة يستنبط ذلك من قوله صلى الله عليه وسلم : " إنما بعثتم ميسرين ولم تبعثوا معسرين " وفيها أيضاً :حسن التصرف والمراقبة والتوجيه للموقف التعليمي يستنبط من قوله " صبوا عليه سجلاً من ماء " وفيها :حسن التصرف والقدرة على مواجهة المواقف الطارئة بكل شجاعة يستفاد ذلك من قوله" فنهاهم النبي صلى الله عليه وسلم وقال دعوه : "إنما بعثتم ميسرين ... " . ولذا كان الأعراب يدعون لرسول الله صلى الله عليه وسلم وهذا الأعرابي نفسه كان يدعو لرسول الله فقد قال:

اللَّهُمَّ ارْحَمْنِي وَمُحَمَّدًا ، وَلا تَرْحَمْ مَعَنَا أَحَدًا ؛ وذلك لما رآه من رفق رسول الله صلى الله عليه وسلم وتلطفه في المعاملة فَلَمَّا سمعه رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم يقول ذلك بادره أيضاً بالنصح والتوجيه قَائلاً له : " لَقَدْ حَجَّرْتَ وَاسِعًا" أي (ضيقت واسعاً). يُرِيدُ رَحْمَةَ اللَّهِ .

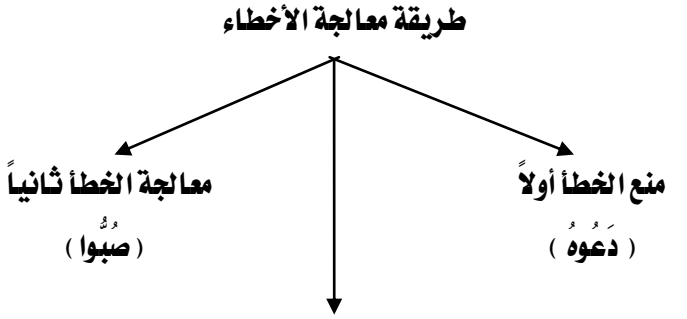

وهكذا يكون أسلوب الدعوة ، وأسلوب النصح الذي يحقق السلام بين الأفراد ويمنع المشاحنات والصراعات والعداوات، فلله ما ألطف أخلاقك يا سيدي يا رسول الله، وما أروع تربيتك ونصحك، وما أحوجنا اليوم إلى أسلوبك وطريق معاملتك التي تقرب العالم للإسلام وتحببه فيه لأنه دين السلام.

****

عَنْ أَبِي أُمَامَةَ ، قَالَ : إِنَّ فَتًى شَابًّا أَتَى النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ ، ائْذَنْ لِي بِالزِّنَا ، فَأَقْبَلَ الْقَوْمُ عَلَيْهِ ، فَزَجَرُوهُ ، قَالُوا : مَهْ مَهْ ، فَقَالَ : " ادْنُهْ " ، فَدَنَا مِنْهُ قَرِيبًا ، قَالَ : فَجَلَسَ ، قَالَ : " أَتُحِبُّهُ لِأُمِّكَ ؟ " قَالَ : لَا وَاللَّهِ ، جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاءَكَ ، قَالَ : " وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِأُمَّهَاتِهِمْ " ، قَالَ : " أَفَتُحِبُّهُ لِابْنَتِكَ ؟ " قَالَ : لَا وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ ، جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاءَكَ ، قَالَ : " وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِبَنَاتِهِمْ ، قَالَ : أَفَتُحِبُّهُ لِأُخْتِكَ ؟ " ، قَالَ : لَا وَاللَّهِ ، جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاءَكَ ، قَالَ : " وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِأَخَوَاتِهِمْ ، قَالَ : أَفَتُحِبُّهُ لِعَمَّتِكَ ؟ " قَالَ : لَا وَاللَّهِ ، جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاءَكَ ، قَالَ : " وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِعَمَّاتِهِمْ ، قَالَ : أَفَتُحِبُّهُ لِخَالَتِكَ ؟ " قَالَ : لَا وَاللَّهِ ، جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاءَكَ ، قَالَ : " وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِخَالَاتِهِمْ ، قَالَ :

فَوَضَعَ يَدَهُ عَلَيْهِ وَقَالَ : " اللَّهُمَّ اغْفِرْ ذَنْبَهُ ، وَطَهِّرْ قَلْبَهُ ، وَحَصِّنْ فَرْجَهُ " ، فَلَمْ يَكُنْ بَعْدُ ذَلِكَ الْفَتَى يَلْتَفِتُ إِلَى شَيْءٍ(١)

كان هذا الموقف من الشاب وهذا الكلام الصادر منه كفيل بإشعال حرب، وإقامة صراع ونشوب مشادة بينه وبين صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم فالشهوة فيه عارمة والعواطف حارة والمشاعر مشبوبة ؛ إذ هو شاب في مقتبل عمره وريعان شبابه، ولم يتقبل صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا الكلام منه فقاموا بزجره وتأكيد نهره مكررين (مه مه) مرتين، ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان له موقف آخر مع هذا الشاب ، موقف يتناسب مع طبيعة الوضع الخاص لهذا الشاب وتفهم مشاعره ويتناسب مع طبيعة رسول الله صلى الله عليه وسلم في الدعوة إلى الله وفي تكوين جيل متصل بالله عز وجل عن حب ورغبة لا عن خوف ورهبة .

فلم يكن اتجاه رسول الله صلى الله عليه وسلم هو تخويف الناس من الله عز وجل ، وإنما ربط قلوبهم بالله وبطاعته عن طريق حب الفضيلة وتقبلها ، وكره الرذيلة والتنفير منها.

فكان هذا الحوار الرائع الذي دار بين هذا الشاب وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إنه حوار يغرس القيم ويثبت الفضيلة ،ويربي النفس على حب الخير وبغض الشر ، إنها التربية الجميلة الصحيحة التي ردت هذا الشاب عن غوايته ، والتي عالجت الموقف الذي كان سيشتعل لولا هذا الحوار الهادئ ، والخطاب اللطيف الذي انتهي بالإقناع والدعاء له ،فقام الشاب وقد رضيت نفسه ، واطمئن قلبه وهدأ باله ، وأُطْفأت شهوته فلم يكن يلتفت إلى شيء بعد ذلك.

---

(١) علق عليه شعيب الأنؤوط وقال: إسناده صحيح ورجاله ثقات هم رجال الصحيح، مسند أحمد بن حنبل لأبي عبيد الله أحمد بن حنبل الشيبانيص٣٥٦،ج٥، مؤسسة قرطبة، القاهرة د.ت.

إنه حوار اختيرت أساليبه بعناية شديدة

فتلك الاستفهامات المتعددة التي طرحها رسول الله صلى الله عليه وسلم " أَتُحِبُّهُ لِأُمِّكَ ؟ " " أَفَتُحِبُّهُ لِابْنَتِكَ ؟ " "أَفَتُحِبُّهُ لِأُخْتِكَ ؟ " "أَفَتُحِبُّهُ لِعَمَّتِكَ" ؟ أَ"فَتُحِبُّهُ لِخَالَتِكَ ؟ " حُشِدت جميعها لتقرر الشاب بخطورة ما يقول وسوء عاقبته ، كما أن فيها إقامة علاقة صادقة بلغة حوار مناسبة تدع للآخر مجالاً للتفكير في حل مشكلته والحكم على تصرفه؛ولذا كان جواب الشاب في كل مرة بالنفي ؛لأنه أدرك فداحة هذا الأمر وعظم أثره .

إنها استفهامات هادئة أحدثت تغييراً وتأثيراً في الطرف المقابل ،فأنتجت إجابة هادئة مصحوبة بالدعاء لرسول الله صلى الله عليه وسلم " لَا وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ ، جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاءَكَ "

فالرسول صلى الله عليه وسلم رفض اعتماد أسلوب الصحابة في هذا الموقف ؛ ولذا يجب علينا البعد عن كل الأساليب العنيفة من صياح وصراخ وقهقهة وفرك للأصابع ولطم للخدود عند مواجهة مثل هذه المواقف

ما أحوجنا اليوم إلى خطابات رسول الله صلى الله عليه وسلم والتأسي بها وجعلها قدوة حية ونموذج متحرك يعتمد عليه في الإقناع والتأثير وإشاعة السلم بين الأفراد .

إن هذا الخطاب تمتع بخصائص بلاغية أخرى منها ذلك الحذف في قوله : (لَا وَاللَّهِ) والتقدير: لا أحبه لأمي أو بنتي أو أختي .... والحذف هنا للدلالة قول الرسول صلى الله عليه وسلم عليه، كما أن هذا الحذف من قبل الشاب قابله حذف آخر من قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله : (وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِأُمَّهَاتِهِمْ) والتقدير: إن كنت لا تحبه لأمك أو ابنتك أو أختك..... فالناس لا يحبونه لأمهاتهم ولا..... فحذفت جملة الشرط وبقي جوابهالوجود ما يدل عليه من السياق .

ومنها الترقي والتدرج في ذكر الأم والابنة والأخت والعمة والخالة ،على حسب أولوية القرابة و منزلة كل واحدة منهن في نفس الشاب، وقد جاء هذا التدرج جارياً مجرى الآية الكريمة :" حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ" (النساء٢٣)

ومنها التعبير عن الزنا بالضمير في كل سؤال وجهه النبي صلى الله عليه وسلم للشاب ،ولم يذكره بلفظه في قوله أَتُحِبُّهُ لِأُمِّكَ ؟ " " أَفَتُحِبُّهُ لِابْنَتِكَ ؟ " "أَفَتُحِبُّهُ لِأُخْتِكَ ؟ " "أَفَتُحِبُّهُ لِعَمَّتِكَ" ؟ أ"فَتُحِبُّهُ لِخَالَتِكَ ؟ للتنزه عن ذكر اسمه.

ومنها ذلك الأمر : " اللَّهُمَّ اغْفِرْ ذَنْبَهُ ، وَطَهِّرْ قَلْبَهُ ، وَحَصِّنْ فَرْجَهُ " الذي خرج عن معناه الحقيقي إلى الدعاء يالله من حوار راق رائع لا غرور فيه ولا كبرياء ، بل ألفة وانسجام في الكلمات (ذَنْبَهُ ، قَلْبَهُ ، فَرْجَهُ) وإقناع مصحوب بالدعاء في نهايته، ما أروع خُلُقك يا سيدي يا رسول الله.

كما اختيرت ألفاظ هذا الخطاب بدقة بالغة فقد آثر رسول الله صلى الله عليه وسلم الفعل (تحبه) دون (تريده أو تهواه أو تطلبه) ؛ لأن لفظ الحب جامع لكل هذه المعاني ، ولأن المحبة للأم أو الأخت أو الخالة والعمة لا تكون إلا لفعل ما يوجب هذه المحبة كإرادة الإكرام لهن ، وصيانة أعراضهن ، ولفظ (الإرادة) لا يعطي هذا المعنى كما أعطاه لفظ المحبة "إن المحبة تجري على الشيء ، ويكون المراد به غيره ، وليس كذلك(الإرادة)تقول: أحببت زيداً ، والمراد أنك تحب إكرامه ونفعه ، ولا يقال : أردت زيداً بهذا المعنى ، تقول: أحب الله أي: أحب طاعته ، ولا يقال : أريده بهذا المعنى ، فجعل المحبة لطاعة الله محبة له، كما جعل الخوف من عقابه خوفاً منه ، وتقول : الله يحب المؤمنين بمعنى: أنه

يريد إكرامهم، وإثباتهم ، ولا يقال: إنه يريدهم بهذا المعنى ؛ ولهذا قالوا : إن المحبة تكون ثواباً وولاية ، ولا تكون (الإرادة) كذلك[١]

بهذا الخطاب النبوي الشريف نجح رسول الله صلى الله عليه وسلم في تغيير رأي هذا الشاب وموقفه وسلوكه وصحح له سوء فهمه وتجنب بهذا الخطاب الراقي خلافاً وصراعاً كان سيحدث لا محالة بين الشاب والصحابة رضوان الله عليهم وكان قادراً صلوات الله وسلامه عليه على الإقناع والتأثير بشكل فعال .

****

عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ ، عَنْ أَبِيهِ ، قَالَ : اسْتَأْذَنَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَعِنْدَهُ نِسْوَةٌ مِنْ قُرَيْشٍ يُكَلِّمْنَهُ وَيَسْتَكْثِرْنَهُ عَالِيَةً أَصْوَاتُهُنَّ عَلَى صَوْتِهِ ، فَلَمَّا اسْتَأْذَنَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ قُمْنَ فَبَادَرْنَ الْحِجَابَ ، فَأَذِنَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَدَخَلَ عُمَرُ وَرَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَضْحَكُ ، فَقَالَ عُمَرُ : أَضْحَكَ اللَّهُ سِنَّكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " عَجِبْتُ مِنْ هَؤُلَاءِ اللَّاتِي كُنَّ عِنْدِي فَلَمَّا سَمِعْنَ صَوْتَكَ ابْتَدَرْنَ الْحِجَابَ " ، فَقَالَ عُمَرُ : فَأَنْتَ أَحَقُّ أَنْ يَهَبْنَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ، ثُمَّ قَالَ عُمَرُ : يَا عَدُوَّاتِ أَنْفُسِهِنَّ أَتَهَبْنَنِي وَلَا تَهَبْنَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَقُلْنَ : نَعَمْ أَنْتَ أَفَظُّ وَأَغْلَظُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " إِيهًا يَا ابْنَ الْخَطَّابِ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا لَقِيَكَ الشَّيْطَانُ سَالِكًا فَجًّا قَطُّ إِلَّا سَلَكَ فَجًّا غَيْرَ فَجِّكَ "[٢] .

---

(١) الفروق اللغوية لأبي الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري ، صـ١٣٨.

(٢) صحيح البخاري ٣/١١٣٣

يحكي هذا الحوار عدة مواقف : موقف عمر من النسوة ، وموقف النسوة من عمر، وموقف الرسول صلى الله عليه وسلم من عمر، وبنظرة سريعة إلى ما قاله عمر رضي الله عنه للنسوة، وما قالته النسوة لعمر نلاحظ أنه لــولا وجــود رسول الله صلى الله عليه وسلم لدار صراع عنيف بين عمر والنسوة؛ فعمر رضي الله عنه كانت نبرته في التعنيف لهن عالية، كما أن النسوة لم يتحرجن من وصف عمر بالفظاظة والغلظة، فلم يخفن منه لأنهن في حضرة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أما رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي فاقت بلاغته كل بلاغــة ، فقــد حفظ لعمر حقه؛ فأدار الحوار على وجه آخر غير الذي قصده النسوة فجعل تلــك الفظاظة وهذه الغلظة حاجباً له من الشيطان، وحولها صلوات ربي وسلامه عليه من صفات سيئة في جانب عمر إلى مصادر قوة وفخار له. مستخدماً لذلك أسلوب القصر الذي أفاد سلوك الشيطان الطريق المجانب لطريق عمر .

ثم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أعطى هذا الخبر مؤكداً ليؤكــد قوة عمر في الحق ونفور الشيطان منه، وسلوك الشيطان طريقاً غير طريق عمر من قبيل المبالغة ،وهو كناية عن خوفه من عمر، إذ هو من فَــرّق بــين الحــق والباطل ، وهو من انتصر للدين الإسلامي وتعصب له .

والتعبير بقوله" إِيهًا يَا ابْنَ الْخَطَّابِ " دل على طلب الاستزادة ؛ لأن معنى (إِيهًا) الزيادة " يقول العيني: "معناه زدنا مما عهدنا، فهو اسم يسمى به الفعــل؛ لأن معناه الأمر تقول للرجل إذا استزدته من حديث أو عمل : إيه بكسر الهاء"[١]

*****

عن عائشة قالت : استأذن رهط من اليهود على رسول الله " ﷺ " فقالوا : السام عليكم فقالت عائشة : بل عليكم السام واللعنة فقال رســول الله " ﷺ " (يــا

(١) عمدة القارئ ١٢/٤١٧

عائشة إن الله يحب الرفق فى الأمر كله) قالت : " لم تسمع ماقالوا ؟ قال : قد قلت وعليكم " (١)

لقد بدأ توجيهه صلى الله عليه وسلم لعائشة بندائها بأدة البعد وكأن فى ذلك إشارة إلى أنها رفيعة الشأن جليلة القدر عظيمة المنزلة فينبغي أن تتعامل بأخلاقها وآدابها التي هي آداب الإسلام بعض النظر عمن تتعامل معه وهذا هو الطريق الذى علمه الله لرسوله صلى الله عليه وسلم " ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ " (فصلت ٣٤)

ثم جاء بعد النداء ذلك الكلام المؤكد بأكثر من مؤكد " إن الله يحب الرفق فى الأمر كله " فأكد هذا الكلام بإن واسمية الجملة ولفظ كله وما كان هذا التأكيد إلا لإفادة معنى لا يتحقق إلا بوجود التأكيد وهو إزالة الوهم ؟؟ بأن صنيعها حسن وأن تصرفها صحيح فهي قد قابلت الإساءة بالإساءة وكافأتهم بالمثل فأين الخطأ ؟ إنها فى ظنها أنها دافعت عن رسول الله فأراد صلى الله عليه وسلم أن يعلمها سماحة الإسلام ورفقه بتلك العبارة المؤكدة الموجزة المعبرة عن جوهر الشريعة .

وفى ذكره للفظ الجلالة ما يدل على جلال هذا الأمر وعظمه فلم يقل: الرفق مطلوب فى كل أمر إذا كان الله يحب الرفق فمن باب أولى أن يحبه العبد ويكون منهجاً له فى الحياة .

وفى ذكره (كله) ما يؤكد هذه الأهمية للرفق، فهو مطلوب فى كل الأمور وما كان مطلوباً فى كل الأمور فلا شك أنه أمر عظيم مهم ، والعبارة كلها تعريض باندفاعها ، وعدم توفيقها فى الرد، إلا أنه وهو الرفيق بأمته لم يشأ أن يصرح لها بذلك خاصة والسياق كله يتحدث عن الرفق .

---

(١) صحيح البخاري ،كتاب الأدب ، باب الرفق في الأمر كله . وصحيح مسلم بشرح النووي كتاب البر والصلة والآداب، باب فضل الرفق.

ثم لنظر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يقول : (قلت وعليكم) عبارة موجزة إلا أنها تحمل من المعاني العظيمة الكثير، ففيها تحقيق الرد عليهم بطريقتهم ، فهم عندما قالوا السام عليكم كان قوله: " وعليكم " يفيد : وعليكم مثل الذى قلتم أى السام دون التصريح بذلك ،ففيه إلى جانب الإيجاز كف للسان عن النطق بالفاحش من القول ، كما تحقق في هذا الرد الرفق والأخذ بالحق دون بذاءة في القول أو فحش في الكلام ، كما أن فيه حسن لباقة وذكاء لا يتوافران لأى أحد حيث إن التصريح وهو ما فعلته عائشة رضى الله عنها أسهل وأيسر ويتبادر لذهن أى أحد ،كما أن فى عدم التصريح من اللطائف أيضاً استطاعة كتم غيظ النفس والسيطرة على الغضب ، وهذا هو الذى يحقق السلم فى مجتمعاتنا لو اتخذنا رسول الله صلى الله عليه وسلم قدوة لنا ، فهو يعلمنا هنا ضرورة ضبط النفس عن إساءة الغير لنا ، كما يعلمنا كيفية خطاب من أساء إلينا بحسن الرد عليه والرفق معه مع عدم التهاون فيما يقدم فى كرامتنا وعزتنا وانفتنا .

ما أروعك يا سيدى يا رسول الله وما أعظم خلقك وما أشد رفقك بأمتك : مسلمها وكافرها صغيرها وكبيرها شبابها وشيوخها رجالها ونساءها بأبى أنت وأمى يا رسول الله .

عَنْ أَنَسٍ قَالَ : بَلَغَ صَفِيَّةَ أَنَّ حَفْصَةَ قَالَتْ بِنْتُ يَهُودِيٍّ !! فَبَكَتْ فَدَخَلَ عَلَيْهَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهِيَ تَبْكِي فَقَالَ : مَا يُبْكِيكِ فَقَالَتْ : قَالَتْ لِي حَفْصَةُ : إِنِّي بِنْتُ يَهُودِيٍّ . فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : إِنَّكِ لَابْنَةُ نَبِيٍّ ، وَإِنَّ عَمَّكِ لَنَبِيٌّ ، وَإِنَّكِ لَتَحْتَ نَبِيٍّ ؛ فَفِيمَ تَفْخَرُ عَلَيْكِ ، ثُمَّ قَالَ (اتَّقِي اللَّهَ يَا حَفْصَةُ) .(١)

*****

(١) سنن الترمذي ، كتاب المناقب ، باب فضل أزواج النبي صلى الله عليه وسلم.

هذا الخطاب النبوي الشريف يعلمنا صناعة الخطاب الذى يزيل الضغينة من القلوب والألم من النفوس، فالكلمة الطيبة تسعد القلوب وتريح النفوس وتمتص الغضب والحقد من قلوب الآخرين وتضمن الجرح وتكون بلسماً شافياً .

لقد طيب رسول الله صلى الله عليه وسلم بكلماته الحانية المنتقاة خاطر صفية رضى الله عنها فكانت تلك الكلمات بلسماً مداوياً، ودواء شافياً يداوى قلبها وجرحها .

إنه رسول الله الرحمة المهداة – صلوات ربى وسلامه عليه – فلم يتجاهل بكاء صفية رضى الله عنها وإنما بادرها بالسؤال عندما رأها تبكى قائلاً لها ما يبكيك ؟ وعندما أخبرته بالسبب لم يتجاهل ، ولم يقل لها إنه سبب لا يستحق البكاء ، أو كونى كبيرة فى تصرفاتك ، وردود أفعالك لم يقل صلى الله عليه وسلم شيئاً من ذلك ؛ بل راعى حالتها النفسية وأدرك تماماً أنها فى هذه الحالة تشتاق إلى كلمات تسرها ، وتؤلف قلبها ، وتنفس كربتها ، فكانت كلماته كالآلىء المتراصة إلى أن صارت عقداً (إِنّكِ لَابْنَةُ نَبِيٍّ ، وَإِنّ عَمّكِ لَنَبِيٌّ ، وَإِنّكِ لَتَحْتَ نَبِيٍّ)

ثلاث جمل متراصة مترابطة تعطى الفخر والشرف لصفية بقوة حيث أكد رسول الله صلى الله عليه وسلم تلك الأخبار بأكثر من مؤكد بإن ولام الابتداء واسمية الجملة التي تدل على الثبوت لقد نظر صلى الله عليه وسلم إلى حالتها النفسية فأعطى لها الخبر بكل هذه التأكيدات وعاملها معاملة من أنكر لما ظهر عليها من شدة التأثر بكلام حفصة رضى الله عنها ومما زاد فى تأكيد هذه الأخبار مجيئها بأسلوب القصر فصفة الابنة والعم والزوج كلها صفات اقتصرت على صفيه ثم إنه أشرك الجمل جميعها فى حكم واحد ، فوصلها كلها بالواو مما زادها تأكيداً على تأكيد .

ثم إنه صلى الله عليه وسلم أراد زيادة تشريفها وتكريمها فعبر بالكناية حيث قال : (تَحْتَ نَبِيٍّ) ليدل على شدة اتصافه بها فالعبارة كناية عن النبي محمد صلى الله عليه وسلم .

لقد قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم الأدلة القاطعة والبراهين الساطعة التي تقنع صفية بفضلها وشرفها ،وهو ما يسمى بالمذهب الكلامى .

ولم يكتف بذلك صلى الله عليه وسلم وإنما أتبع ذلك بسؤال غرضه نفى وجود ما يمكن أن تفخر به حفصة عليها ، فعليها أن ترجع لحالتها وتستعيد سرورها وفرحها ولا تلتفت إلى مثل هذا الكلام ..

وبعد أن فرع من تهدئة صفية توجه بالنصح والإرشاد لحفصة قائلاً لها بعبارة موجزة معبرة (اتّقِي اللّهَ يَا حَفْصَةُ) ، فالأمر يحمل فى معناه إلى جانب النصح الزجر والتحذير من عقاب الله تعالى .

ما أجمل رسول الله صلى الله عليه وسلم فى تصرفه وما أحكمه إنه تحرك على مستويين : تهدئة نفس المتأذى ، والنصح والتوجيه لمن قام بالأذى وبذلك يستقيم الأفراد ، ويسود السلم ويعم الأمن والاستقرار النفسى .

علينا باتخاذ رسول الله قدرة فى خطاباتنا ،وما أكثر ما يحدث لنا من مواقف مشابهة لهذا الموقف فتقوم حرب بين الطرفين لا تخمد ولا تنتهي وحينئذٍ نكون فى هذه الحالة أحوج ما نكون إلى مثل هذا الخطاب الهادئ الهادف المؤثر الذى يعطى لكل ذى حق حقه، يعطى لمن وقع عليه الأذى حقه فى رفع معنوياته وأخذ حقه ويعطى النصيحة لمن أخطأ والتحذير له من الوقوع فى مثل هذا الخطأ إن هذا الخطاب كفيل بإقامة مجتمع مسالم لا ضغينة فيه ولا بغضاء ولا حقد ولا شحناء .

****

عن عَائِشَةَ رضي الله عنها قَالَتْ : قُلْتُ لِلنَّبِي صلى الله عليه وسلم : حَسْبُكَ مِنْ صَفِيَّةَ كَذَا وَكَذَا . فَقَالَ :

" لَقَدْ قُلْتِ كَلِمَةً لَوْ مُزِجَتْ بِمَاءِ الْبَحْرِ لَمَزَجَتْهُ . قَالَتْ : وَحَكَيْتُ لَهُ إِنْسَانًا ، فَقَالَ : مَا أُحِبُّ أَنِّى حَكَيْتُ إِنْسَانًا وَأَنَّ لِي كَذَا وَكَذَا"(١)

جاء هذا الحديث النبوي الشريف مقرراً لخطورة الكلم ،وقد جاءت ألفاظ هذا الحديث سهلة منتقاة، فقد آثر صلى الله عليه وسلم كلمة " مزجت " وفضلها على غيرها من الكلمات التي قد تؤدى نفس المعنى من مثل "خلطت" أو "دمجت" ؛ لأنها تعطى المعنى الدقيق ،فالرسول صلى الله عليه وسلم أراد تبشيع الموقف وتفظيعه ، فالكلمة لو مزحت بالبحر وكأنها شئ سائل يختلط بسائل مثله ثم يمتزج معه لا نستطيع فصله ولا نستطيع إزالة ما أصاب البحر من لون وطعم ورائحة لأن الشيئين قد امتزجاً بعد الخلط فصعب فصلهما .

ثم إنه صلى الله عليه وسلم قد أكد الكلام باللام وقد فى قوله " لَقَدْ قُلْتِ " لإثبات الخطأ على عائشة وتأكيده وجاء بـ (كلمة) منكرة لبيان خطرها وعظمها أى كلمة عظيمة ،وفى قوله : " لو مزجت " استعارة مكنية حيث شبه الكلمة بالسائل ثم حذف المشبه به ودل عليه بشئ من خصائصه وهو المزج وجاءت هذه الاستعارة لبيان بشاعة الكلمة ومدى تأثيرها السلبي فهي عندما مزجت بماء البحر غيرته وكدرته مع أنها كلمة صغيرة لا تتعدى بضعة حروف ومع ذلك استطاعت أن تغير ماء البحر الكثير الوفير .

ثم جاءت عبارة صريحة فى عدم الموافقة على ذكر إنسان بكلمات ليست طيبة فقال صلى الله عليه وسلم :ما أحب أنى حكيت إنساناً "

(١) سنن أبي داود، كتاب الأدب ، باب في الغيبة.

وجاء لفظ (إنساناً) نكرة للستر والتعمية ؛حتى لا يعرف هذا الإنسان ؛ لأن فيه إساءة له .

وقد عبر صلى الله عليه وسلم عن أن عدم حبه هذا متجدد على وجه الاستمرار ؛ولذا عبر بالفعل المضارع (أحب) لأنه لو قال (ما حببت) قد يظن ظان أنه فى هذه اللحظة فقط لأن حالة الرسول صلى الله عليه وسلم فى هذا الوقت لا تسمح بأن يسمع كلمة سيئة عن أحد فنفى هذا الأمر بالتعبير بالفعل المضارع .

لقد تأذى رسول الله صلى الله عليه وسلم مما قالته عائشة رضى الله عنها فجاء رده " لَقَدْ قُلْتِ كَلِمَةً لَوْ مُزِجَتْ بِمَاءِ الْبَحْرِ لَمَزَجَتْهُ " كاشفاً فيه عن جلال الكلمة وقدرها هذا العبارة قال النووى :

" وهذا من أبلغ الزواجر عن الغيبة "

الخاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات حمداً يوافي نعمه ويكافئ مننه ويدفع نقمه ، والصلاة والسلام على أفصح العرب حامل لواء الفصاحة والبيان الذي آتاه الله جوامع الكلم ، وخصه بالفصاحة بين البدو والحضر فأعجز بلغاء ربيعة ومضر .

وبعد ، فقد اتضح في هذا البحث أن الخطاب النبوي الشريف شعاع يضيئ لنا مسالك الحياة وطرقها بعد كتاب الله عز وجل ، فهو خطاب يمتلك القلوب بما يملكه من أهداف سامية وأغراض عالية وتوجيهات فاضلة وتوصيات نافعة إلى جانب ما يحمله من جمال وبيان وإحكام نظم وقوة فصاحة وسمو بلاغة .

ومن هذا المنطلق نقول : إننا اليوم في حاجة ملحة إلى التوجه لهذا الخطاب وتفعيله واتخاذه القدوة في خطابتنا المسموعة والمقروءة السياسية منها والاجتماعية والتوجيهية والتربوية والدينية والثقافية..... إذ هو بما يحمله من قيم أصيلة ومعان سامية وتوجيهات ربانية يمثل خطوة كبيرة في تحقيق أهداف الإسلام العظيمة والتي من أهمها تحقيق السلام العالمي ،فهو أنموذج فريد في نشر السلم المدني والأمن الاجتماعي ، وإذكاء المحبة والتعاون والرحمة بين الأفراد وهو قوة نستطيع أن نجمع بها قوانا ونوحد صفوفنا وندفع طاقاتنا ونصونها عن التمزق والتفرق وهو سلاح قوي في مواجهة مشكلات الحياة التي تسبب اندلاع الفتن والنزاعات وتشتت المجتمع وتفسخ عرى الإنسانية ؛لأنه يربي النفس ويهذب الخلق ويدفع للخير وينفر من الشر ،ولهذه الأهمية البالغة لبلاغة الخطاب النبوي ولهذا الدور الهام الذي يقوم به لإقرار السلم كانت هذه التوصيات:

١- ضرورة القراءة المتجددة لخطابات الرسول صلى الله عليه وسلم على نحو متجدد منفتح على روح العصر فخطاباته عليه السلام صالحة لكل العصور والأزمنة لأنه صاحب الرسالة الخالدة .

٢- إيصال رسالته وخطاباته للعالم أجمع لأن فيها احتراماً للإنسانية وإنقاذاً للبشرية .

٣- عدم عزل الدين عن المجتمع والواقع والأسواق والميادين والاقتناع التام بأن التعويل على الكتاب والسنة قادر على صنع سلم مدني في المجتمع بل في العالم أجمع .

٤- تنقية الدين مما هو برئ منه فقد أصاب الإسلام ضير شديد من كثرة مما نسب إليه من محدثات هو منها برئ، وتنقية تراثنا الثقافي من الدخيل الذي يشينه وما أكثره

٥- على الجامعات من خلال بحوثها الأكاديمية أن تتولى إخراج عمل علمي ضخم يكون الهدف منه إبراز الصورة الحقيقية لمكانة السلم في الإسلام ، والخطوات التي اتخذها الإسلام لدعم السلم من توجهات أخلاقية وعبادات وعقوبات ، وكيفية تطبيق الإسلام مبدأ السلم وتثبيته في العقيدة ، وعلى نطاق الأسرة وفي النظام العام والعلاقات الإنسانية ، وكيف نظم الإسلام علاقة المسلمين بعضهم ببعض وعلاقتهم مع غيرهم ممن يخالفونهم في الديانة، والشواهد التاريخية على أن الإسلام هو دين السلام والرد على الشبهات الموجودة في بعض النصوص، وتوضيح العلاقة بين الجهاد والسلم والفرق بين الجهاد والإرهاب وما الحرب المشروعة في الإسلام وغير ذلك مما لا يستطيع القيام به إلا الجامعات المتخصصة والمعترف بها

٦- على القادة والمسؤولين والسياسيين وأصحاب القرار اعتماد الخطاب النبوي فى خطاباتهم وقراراتهم ومواجهة الآخرين به أفراداً وجماعات ، وبث

قيمه ومبادئه في نفوس العاملين بالمؤسسات المختلفة، فهو وسيلة من وسائل السلم والاستقرار، وهو حلقة من حلقات السلام العادل الشامل الذي دعا إليه الإسلام وضمنه للإنسانية.

٧- على أهل البلاغة من المعلمين والأساتذة إعداد جيل قادر على الخطاب المؤثر والمقنع لمواجهة التحديات التي تعوق السلم عن طريق تعليم البلاغة العربية ممثلة في أفصح وأبلغ خطاب بشري هو خطاب المصطفى صلوات الله وسلامه عليه لينشأ الناشئة على ثقافة الإسلام السمحة ويتربوا على مبادئ السلام التي يقرها الإسلام ويتعلموا صناعة الكلمة وفق التوجيه النبوي الشريف.

٨- على علماء البلاغة الكشف عن أساليب وطرائق هذا الخطاب النبوي الراقي ، وإخراجه للأمة وللعالم ؛لأنه خطوة كبيرة في دعم السلم لا ينكر أحد قيمته ولا مجال للتخلي عنه إن أردنا سلماً حقيقياً يصنع الهدوء في النفوس .

٩- على الدعاة عبء كبير في نشر خطاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وتوضيح معناه وعدم ترك الساحة لأعداء الإسلام يدخلون في خطاب المصطفى ما ليس منه ويشوهونه لعدم فهمهم لمعناه .الصحيح وقلة درايتهم باللغة العربية وأساليبها.

١٠- على أهل القانون عدم السكوت عن كل خطاب يدعو للشر والرزيلة ويخالف منهج رسول الله ويستهين به.

١١- على الإعلامين والصحفيين والمثقفين وأصحاب الأقلام القيام بدورهم المنوط بهم في إبراز وإعلان وتوضيح قيم الإسلام الحقيقية ونشر أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم وتثقيف المجتمع من خلال نصائحه وتوجيهاته وتغيير عقلية الأفراد وفق المنهج النبوي .

١٢- على كل راع في مكانه تفعيل توجيهات ونصائح ومواقف الرسول صلى الله عليه وسلم وجعلها واقع ننعم من خلاله بالأمن والسلم

١٣- على الرعية مخاطبة الراعي بخطاب راق لا يحمل إلا حباً وحرصاً على المصلحة العامة وصدقاً وإخلاصاً وأن يكون النقد عادلاً بذكر مواطن الخلل ومواضع القصور والسلبيات مصحوبا بذكر المحاسن والإيجابيات .

١٤- على كل فرد في أمتنا أن ينطلق من موقعه الذي هو فيه مفعلا لخطابات النبي صلى الله عليه وسلم ليصبح الفعل فعلا جماعياً.

١٥- على وزارة الثقافة طبع توجيهات ونصائح الرسول صلى الله عليه وسلم واتخاذه قدوة فهو المثل الأعلى والنموذج الأسمى للكمال الإنساني عوضا عن القدوات التي ابتلينا بها في هذا العصر الذي دهمته العولمة وغابت فيه القدوة وشوهت فيه صورة الإسلام والمسلمين وبذلك نصنع مجتمعا راقياً ، محفوظاً من كل فتنة وضلال

١٦- على الجهات المعنية بالاهتمام بالأطفال والشباب غرس توجيهات الرسول صلى الله عليه وسلم ووصاياه في نفوسهم فهي الحصن المنيع الواقي من التطرف والتعصب.

١٧- على الأمة أن تعي أن خطاب النبي صلى الله عليه وسلم قادر على علاج قضايا المجتمع والناس فعليها التمسك به قولاً وعملاً وعدم التفريط في نصائحه ووصاياه صلوات ربي وسلامه عليه ،وعلى الأمة رفض كل تقليد لا يتماشى مع تعاليم وتوجيهات الرسول الكريم وعدم الرضوخ له مهما كلفنا ؛ لأن الحرية تنتزع ولا تمنح.

أسأل الله أن يجنبنا الزلل

وأن يتقبل منا العمل إنه نعم المولى ونعم النصير.

المصادر والمراجع

١- القرآن الكريم
٢- إعجاز القرآن والبلاغة النبوية للأستاذ / مصطفى صادق الرافعى – ط مكتبة الإيمان – ط أولى – (١٤١٧) هـ (١٩٩٧) م.
٣- أساس البلاغة للزمخشري ، تحقيق عبد الرحيم محمود، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت لبنان ص١١٤
٤- استراتيجيات الخطاب مقاربة لغوية تداولية د. عبد الهادي بن ظافر الشهري دار الكتب الجديد المتحدةط١، ٢٠٠٤م
٥- أصول التربية الإسلامية وأساليبها في البيت والأسرة والمجتمع النحلاوي عبد الرحمن ١٤٢٦هـ، دار الفكر
٦- الإيضاح للخطيب القزويني تحقيق د/ عبد القادر حسين ط مكتبة الآداب
٧- البرهان في علوم القرآن ، بدر الين محمد بن عبدالله الزركشي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار التراث بالقاهرة ط٣، ١٤٠٤هـ-١٩٨٤م .
٨- بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة ، تأليف عبد المتعال الصعيدي ، مكتبة الآداب١٤١٧ه-١٩٩٧م.
٩- البيان والتبيين ط دار الجيل – (١٤١٠) هـ (١٩٩٠) م.
١٠- تاج اللغة وصحاح العربية إسماعيل بن حماد الجوهري ، ١٩٩٠م ، ط٤، دار العلم للملايين ، بيروت، لبنان،
١١- تحليل الخطاب المسرحي في ضوء النظرية التداولية، عمر بلخير، صـ١٠٤ منشورات الاختلاف ، الجزائر، العاصمة ط١، ٢٠٠٣م
١٢- التربية الإسلامية بين الأصالة والمعاصرة، سعيد إسماعيل القاضي، صـ٨ عالم الكتب، بيروت ٢٠٠٤م

١٣- تربية الأطفال في ضوء القرآن والسنة دار المكتبي للطباعة والنشر والتوزيع دمشق ، سوريا
١٤- التصوير الفنى فى الحديث النبوي محمد لطفى الصباع ، المكتب الاسلامى بيروت ط ١ ، ١٤٠٩ هـ ١٩٨٨م .
١٥- التفسير الكبير فخر الدين الرازي دار الكتب العلمية ، طهران، ب.ت .
١٦- الحديث النبوي رؤية فنية جمالية د/ صابر عبد الدايم ص ١١ دار الوفاء، اسكندرية د. ت .
١٧- خلق المسلم ، محمد الغزالي ط الأولى١٤٠٨هـ-١٩٨٧م، دار الريان للتراث، القاهرة.
١٨- سنن أبي داود، طبعة دار السلام الدولية بالرياض " مجلد الكتب الستة " ط٣، ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م.
١٩- سنن الترمذي، طبعة دار السلام الدولية بالرياض " مجلد الكتب الستة " ط٣، ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م.
٢٠- سنن ابن ماجه الإمام الحافظ أبي عبدالله بن يزيد القزويني، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، د.ت.
٢١- سنن النسائي ، بشرح الإمام جلال الدين السيوطي، دار الكتب العلمية، بيروت ، د.ت.
٢٢- شرح الطيبي .
٢٣- شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات لأبي بكر محمد بن القاسم الأنباري تحقيق / عبد السلام هارون – دار المعارف، القاهرة، ط ١٤٠٠ هـ / ١٩٨٠ م

٢٤- صحيح البخاري ، لأبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري صحيح البخاري ، طبعة دار السلام الدولية بالرياض " مجلد الكتب الستة " ط٣، ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م.
٢٥- صحيح مسلم، لمسلم بن الحجاج القشيري، طبعة دار السلام الدولية بالرياض " مجلد الكتب الستة " ط٣، ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م.
٢٦- حوار لا مواجهة د/ أحمد كمال أبو المجد، دار الشروق، القاهرة ١٩٨٨م.
٢٧- دراسات إسلامية فى العلاقات الإجتماعية والدولية د/ أحمد عبد الله دراز ط دار القلم.
٢٨- روائع من أقول الرسول – صلى الله عليه وسلم – دراسات لغوية وفكرية وأدبية تأليف / عبد الرحمن مكتبة الميدانى دار القلم دمشق ط ٤ / ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م .
٢٩- عمدة القارئ شرح صحيح البخارى للإمام بدر الدين أبي محمد محمود بن أحمد العيني مطبعة دار إحياء التراث العربي ومؤسسة التاريخ العربي ، بيروت ، دون تاريخ.
٣٠- فتح الباري بشرح صحيح البخاري، لابن حجر العسقلاني، ط دار المعرفة – بيروت ١٣٧٩هـ.
٣١- الفروق اللغوية لأبي الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري ، تعليق : محمد باسل عيون السود صـ ١٣٨، دار الكتب العلمية ، بيروت – لبنان ، ط٣ ، ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م.
٣٢- لسان العرب ،لابن منظور دار صادر، بيروت ، ط١ ، ١٩٥٥م
٣٣- المجازات النبوية، الشريف الرضي ، قدم له وضبط عباراته وشرحها : طه عبد الرؤوف سعد، مطبعة البابي الحلبي، مصر، الطبعة الأخيرة ١٣٩١هـ، ١٩٧١م .

٣٤- المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر لابن الأثير الجزري، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، شركة ومكتبة ومطبعة البابي الحلبي وأولاده بمصر١٩٣٦م
٣٥- مجلة الآداب العدد صـ١٤٧ ١١٠ ١٤٣٦هـ - ٢٠١٤م
٣٦- مسند الإمام أحمد بن حنبل، علق عليه شعيب الأرناؤوط، قرطبة ، القاهرة . د.ت.
٣٧- مشكاة المصابيح للتبريزي تحقيق محمد ناصر الدين الألباني بيروت ، دمشق ط٣ ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م
٣٨- معجم مقاييس اللغة، ابن فارس ١٣٩٩هـ تحقيق وضبط عبد السلام محمد هارون ، دار الفكر للطباعة والنشر
٣٩- المعجم الوسيط مصطفى وآخرون، مجمع اللغة العربية ، دار الدعوة ب.ت،
٤٠- من بلاغة الحديث النبوي تأليف محمد أحمد سحلول ،ط١، دار الاعتصام- القاهرة ١٤١٦هـ-١٩٩٦م
٤١- نهاية الإيجاز فى دراية الإيجاز ، فخر الدين الرازي، دار صادر.

فهرس الموضوعات

الموضـــــوع	الصفحة
ملخص البحث	٤٠٦٥
مقدمة	٤٠٦٦
تمهيد	٤٠٧١
أولاً : تعريف الخطاب في اللغة والاصطلاح	٤٠٧١
ثانياً : أهمية الخطاب النبوي ودوره في حياة الفرد والمجتمع	٤٠٧٤
ثالثاً : سمات الخطاب النبوي الشريف	٤٠٧٦
رابعاً : مفهوم السلم	٤٠٨٢
خامساً : استثمار بلاغة الخطاب في إقرار السلم المدني	٤٠٨٣
أولاً : أهمية الكلمة وخطرها :	٤٠٨٣
ثانياً : أهمية الخطاب وضرورة استثماره فى إقرار السلم المدني	٤٠٨٦
المبحث الأول : البلاغة في ضوء النصائح النبوية والتوجيهات الأخلاقية خطوة في دعم السلم المدني	٤٠٨٨
المبحث الثاني : بلاغة الرد في خطابات الرسول صلى الله عليه وسلم ودورها في إقرار السلم	٤١٢٧
الخاتمة	٤١٥٥
فهرس المصادر والمراجع	٤١٥٩
فهرس الموضوعات	٤١٦٣

تم بحمد الله